موقف أبي حيان في البحر المحيط من آراء الزمخشري

دكتور
محمد حسن محمد سبتان
أستاذ التفسير وعلوم القرءان المساعد
بكلية أصول الدين القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) (١) وأصلي وأسلم على صفوته من خلقه ومجتباه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا عدد ما كان وعدد ما يكون وعدد ما في علم الله المكنون .

ثم أما بعد :

فإن من يطلّ إطلالة متأنية في تفسير البحر المحيط يطالع أبا حيان مرتضيًا لكثير من نقول الزمخشري من نحو قوله الشهير لدي المفسرين : فإن قلتَ كذا ؟ ـــ قلتُ كذا ....

ويجده تارة أخرى معترضًا عليه ومواجهًا قوله في كثير من آرائه بالنقد اللاذع أحيانًا ، ومصوبًا لما يرتضيه من آرائه حينًا آخر .

وكان من أسباب جمعي هذا البحث وتأليفه أنني رافقت تفسير البحر المحيط زمانًا في إعداد محاضرات التفسير فرأيت الزمخشري قد استحوذ على نصيب، غير يسير من أبي حيان تعقيبًا بين مدح أو ذم ـــ وكل واحد منهما مدرسة ، مشهود لهما من الأفذاذ على مر العصور ـــ فتتبعت كثيرًا من هذه التعقيبات ، أجمعها وأدقق في قول الزمخشري وفي تعقيب أبي حيان عليه، ورأيت جمال موقف أبي حيان الناقد البصير ، والقاضي

١- سورة النمل آية ١٩

العـــادل مـــن الزمخشـــري ، حيث يقع الزمخشري في زلة لا تغتفر من اعتزالياته ، فيعقب عليه أبو حيان قائلاً " فيه دسيسة الاعتزال " (١) أو فـــي زلة نحوية ،فيعقب أبو حيان بقوله "هذا كلام ساقط لا يصدر عن مبتدئ في النحو " (٢)

وأحـــيانًا يعقب عليه بالاعتراف بأنه قد ذهب إلى قول بين المفسرين جيد، فـــيمدحه أبـــو حيان قائلاً :" وهذا قول حسن " (٣) .أو يقف فيه على فائدة فيـــنقلها بجملتها ويعلق عليها بقوله "وهو كلام حسن" (٤) أو يرجحه كقوله : " الأقرب من هذه الأقوال قول الزمخشري" . (٥)

وأحـــيانًا: ينتقـــي أبـــو حـــيان من تفسير الزمخشري مواقف قليلة يوافق الزمخشـــري فيها رأي أهل السنة ، فتلمح السرور في قول أبي حيان حين يقول : " وكلامه أي : (الزمخشري) آخرًا قريب من أهل السنة " (١)

هذا .. وفي مقدمة البحر المحيط تزكية جليلة من أبي حيان للزمخشري في معرض الحديث عن جهود المفسر والشروط الواجب توافرها فيه ، بدأها بقوله : "ولله در أبي القاسم الزمخشري حيث قال في خطبة كتابه : (إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح،وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح،من غرائب نكت يلطف مسلكها،ومستودعات أسرار يدق سلكها،علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم ــ إلى أن نبه الزمخشريُ المفسرَ على عِلمَين مختصين بالقرءان ــ وهما المعاني وعلم

١ – أبو حيان ، البحر المحيط ، ١/ ٥٤٥ دار الكتب العلمية ــ بيروت الطبعة الأولى ١٤١٣هـ في تفسير قوله تعالى(وإذ ابتلى إبراهيم ربه) آية ١٢٤ البقرة
٢– أبو حيان، البحر المحيط ٨/ ١٢٤ في تفسير قوله تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) سورة ق آية ٢١
٣– السابق ٦/٧١ في تفسير قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) الإسراء آية ٧٩
٤– السابق ٤/٤٩٦ في تفسير قوله تعالى (والركب أسفل منكم) الأنفال آية ٤٢
٥– السابق١/ ٢٤٩ في تفسير قوله تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) البقرة آية ٢٤
٦– السابق ٤/٥١٠ في تفسير قوله تعالى (ولكنّ الله ألف بينهم) الأنفال آية ٦٣

البيان ، تمهلَ ــ أي المفسر ــ في ارتيادهما آونة ، وتعبَ في التنقير عنهما أزمنة،وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله .... بعد أن يكون آخذًا من العلوم بحظ ، جامعًا بين أمرين،تحقيق وحفظ، كثير المطالعات،طويل المراجعات، قد رجع زمانًا ورجع عليه، وردَ وردَّ عليه ، فارسًا في علم الإعراب الخ (١)
وختم أبو حيان التزكية بقوله : "انتهى كلام الزمخشري في وصف متعاطي تفسير القرءان ، وأنت ترى هذا الكلام وما احتوى عليه من الترصيف الذي يبهر بجنسه الأدباء، ويقهر بفصاحته البلغاء، وهو شاهد له بأهليته للنظر في تفسير القرءان ، واستخراج لطائف الفرقان" (٢)

وقد قال أبو حيان في بعض مواضعه تعليقا على الزمخشري : " وهذا الرجل وإن كان أوتي من علم القرءان أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة " .(٣)

فبيـــن التزكية له وانتقاده لآرائه نعلم أنه لا يريد زلته أو التقليل من شأنه . لكنها العدالة المجردة التي تنشد الحق لتعلنه أمام العلماء ، ولذا أفردت لفظ (موقـــف أبـــي حيان) في العنوان إشارة إلى موقف الاعتدال المتوسط بين الإفراط والتفريط ، وأنه لم يكن مطريًا له عندما مدحه ، ولم يكن منتقصًا حقه عندما نقده وردّ عليه .
ــ فجعلـــت أنظم حبات هذه المواقف كنظم اللؤلؤ في سلك واحد ، والفائدة المـــرجوّة ــ إن شـــاء الله ــ من الاطلاع على رأي أبي حيان في تفسير الزمخشـــري هي : الجدة في الأسلوب النقدي البنّاء ، والاطلاع على الدقة في تحرير الجواب ، وكذلك التحذير من بعض ما وقع فيه الزمخشري من نحـــو رفـــض قـــراءات مـــتواترة لأنها تخالف نحو البصريين ، ولرؤية الموضـــوع مـــن جوانبه المختلفة ، لاسيما والزمخشري مذكور في بعض صـــفحات الـــبحر المحيط أكثر من ثلاث مرات ، ومن طالعه يعلم ذلك ، وحاولـــت أن أســـتخرج فـــي كل مطلب نماذج مما وافقه فيه وأخرى مما

١- أبو حيان ،البحر المحيط١/ ١١١ ط .دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤١٣هـ
٢- السابق ١/١١٢ ط .دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤١٣هـ
٣- السابق ٧/٨١

انتقده فيه ، وقد قمت بنسبة الآيات لسورها ، وتخريج الأحاديث من مظانها ، وترجمة الأعلام الواردين بالبحث ، وعزو الأبيات الشعرية لقائليها.

وجعلت بحثي هذا مكونًا من مقدمة ومقصدين وخاتمة :
أما المقدمة ــ فكما رأينا ــ فيها سبب اختيار البحث ولمَ أفردت(موقف) في العنوان ؟ والفائدة المرجوة من هذا البحث وبعض الجهود المبذولة فيه
وأما المقصد الأول : ففيه تعريف بالعَلَمين الزمخشري وأبي حيان
وفيه قدمت التعريف بالزمخشري أولاً لتقدمه زمنًا على أبي حيان .
وأما المقصد الثاني: ففيه عرض آراء الزمخشري وتعقيب أبي حيان عليها
وجاء في خمسة مطالب :
المطلب الأول : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري البلاغية.
المطلب الثاني : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري اللغوية .
المطلب الثالث : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري النحوية .
المطلب الرابع : موقف أبي حيان منه في بعض القراءات المتواترة وتعقيبه عليه .
المطلب الخامس : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري الاعتقادية ، ورده عليه .

اللهم إني أتوجه إليك وأسألك باسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت ، وإذا استرحمت به رحمت ، أن تتقبل عملي هذا خالصًا لوجهك الكريم ، وأن تجمعنا ونبينا ﷺ وعلماءَنا ومشايخنا ، وآباءنا وأمهاتنا وذرياتنا ، ومن له حق علينا في جناتك جنات النعيم ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

محمد حسن سبتان
غفر الله له وعفا عنه

المقصد الأول: التعريف بالعَلَمَين

المطلب الأول : التعريف بالزمخشري

لقد تشرف الزمخشري بمجاورة بيت الله الحرام زمانًا ،حتى لقب بـ" جار الله " وهو محمود بن عمر بن محمد بن عمر ، العلامة أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي ، النحوي اللغوي ، المتكلم ، المفسر ، ولد في شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر قرية من قرى خوارزم ، وهي كما لها من الخصائص المادية من كثرة الخصب والثمار والمزارع والأشجار ، فقد كان لها خصائص معنوية من الحكام الذين اعتنوا أشد العناية بالعلوم والآداب فقربوا العلماء من مجالسهم وقلدوهم المناصب فنبغ كثير من العلماء في فروع الدين واللغة ، لذا دفعه هذا الأمر بعد هداية الله عز وجل إلى التفرغ للعلم تفرغًا كاملاً حتى كان عازفًا عن الزواج يجد لذته في البحث والتحصيل وقد أشار لذلك بقوله :

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي * من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربًا لحل عويصة * أشهى وأحلى من مدامة ساق

لقي الزمخشري أفاضل عصره كأبي مضر الأصبهاني(١) الملقب بفريد العصر وتلقى عليه الزمخشري علم النحو، وقد نوه به الزمخشري وأشار إلى علمه وفضله وأحبه وأخلص له وتفجع في رثائه :

وما زال المرء يخرب داره * وموت فريد العصر قد خرب العصرا
وصك بمثل الصخر سمعي نعيه * فشبهت بالخنساء إذ فقدت صخرًا

ولما قدم بغداد سمع من علمائها، وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه وتتلمذوا له ، وأفادوا منه ، وكان علامة الأدب ونسابة العرب ، أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل وتحط بفنائه رحال الرجال .(٢)

١- أبو مضر منصور الأصبهاني : مذكور في ترجمة الزمخشري كثيرًا انظر وفيات الأعيان ١٦٨/٥ ولم أقف على ترجمة خاصة له .
٢- القفطي ، أنباه الرواة ٣/ ٦٥، ٦٦ بتصرف يسير

حتى مدح نفسه باجتماع الناس حوله قائلاً في ديوانه :

ألم تر أني حيثما كنت كعبة * يحفون بي كالطائفين طوايفا

فشرقيهم يهوى إلى النور قابسًا * وغربيهم يسعى إلى البحر غارفا(١)

وقال في وفيات الأعيان : " كان إمام عصره معتزلي العقيدة ، متظاهرًا بالاعتزال حتى نقل عنه : أنه كان إذا قصد صاحبًا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن ، قل له:أبو القاسم المعتزلي بالباب ". (٢)

ومن تصانيفه البديعة : "الكشاف" في أربع مجلدات كبار فرغ من تأليفه صحوة يوم الإثنين الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر في عام ثمان وعشرين وخمسمائة (٣) ،

"والفائق في غريب الحديث" (٤)

و "أساس البلاغة" (٥)

و "ربيع الأبرار ونصوص الأخبار" (٦) في الحكايات

و "متشابه أسماء الرواة " و "الرائض في الفرائض" و"المنهاج في الأصول" و "المفصل في علم العربية"(٧) و "الأحاجي النحوية" وغير ذلك بيد أن الكشاف كان له أثر واسع في الأوساط العلمية على مر العصور ، فقد لقي من العناية من العلماء ما لم تلق كتبه الأخرى :

ــ ومن كتابة الحواشي (درر الأصداف من حواشي الكشاف) دار الكتب رقم (٥٣) للفاضل اليمني(٨). وحاشية (فتوح الغيب في الكشف عن قناع

١- ديوان الزمخشري ورقة ٧٩

٢-ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١٦٨/٥ ترجمة رقم ٧١١ تحقيق د/ إحسان عباس . ط: دار صادر ــ بيروت

٣- حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢ /١٤٧٥

٤- قامت بطبعه دار المعرفة بتحقيق : الأستاذ / محمد أبو الفضل إبراهيم

٥ ــ قامت بطبعه دار المعرفة بتحقيق : الأستاذ/ عبد الرحيم محمود

٦- قامت بطبعه الهيئة المصرية العامة لكتاب بتحقيق الأستاذ/ عبد المجيد دياب

٧- المفصل في علم العربية قام بطبعه دار الجيل ــ بيروت

٨- هو :عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي توفي ٧٧٥ هـ انظر كشف الظنون ٢/ ١٤٨٠

الريب) للطيبي (١) وهي موجودة بدار الكتب رقم (١٤٥) وحاشية سعد الدين التفتازاني (٢) على الكشاف مخطوطة بمكتبة الأزهر رقم (١٨٠٤)

ــ بل لقد وجد من اهتم بشرح خطبته وسماها (قطبة الخشاف لحل خطبة الكشاف) لمجد الدين أبو طاهر الفيروز آبادي (٣).

ــ من تخريج للأحاديث (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) لابن حجر العسقلاني (٤).

وبعد حياة مليئة بالعلم كانت وفاته في ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة (٥) بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة ورثاه بعضهم بأبيات من جملتها :

فأرض مكة ندى الدمع مقلتها * حزنًا لفرقة جار الله محمود(٦)

١- هو: شرف الدين حسن بن محمد الطيبي له تصانيف منها الكاشف عن حقائق السنة النبوية وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب في التفسير توفي ٧٤٣هـ انظر : الدرر الكامنة ٦٨/٢ والبدر الطالع١/ ٢٢٩ ومعجم المؤلفين ٥٣/٤

٢- هو : مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ولد في ٧١٢ هـ وأخذ عن القطب والعضد ومن تصانيفه : حقائق التنقيح لصدر الشريعة في الأصول ، والمقاصد في علم الكلام وشرح تلخيص المفتاح في المعاني والبيان توفي ٧٩١هـ انظر : الدرر الكامنة ٣٥٠/٤ ومعجم المؤلفين ٢٢٨/١٢

٣- هو : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الفيروزآبادي الشيرازي ولد ٧٢٩ هـ بشيراز من تصانيفه : بصائر ذوي التمييز والقاموس المحيط وفتح الباري بالسيل الجاري في شرح صحيح البخاري لم يكمله وتوفي ٨١٧هـ انظر : الضوء اللامع ٧٩/١٠ ومعجم المؤلفين ١١٨/١٢

٤- الإمام : أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة الشافعي ولد في ٧٧٣هـ وصنف أزيد من ١٥٠ مصنفًا منها فتح الباري والإصابة والدرر الكامنة وشرح على الإرشاد في فروع الشافعية انظر : الضوء اللامع ٣٦/٢ ومعجم المؤلفين ٢٠/٢

٥- الداودي ، طبقات المفسرين ١٧٣/١

٦- ابن العماد ، شذرات الذهب ٤/ ١٢١ والسيوطي ، طبقات المفسرين ص٤١

المطلب الثاني : التعريف بأبي حيان

لقد شرفت مصر بمقدم " محمد يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي " (١) عليها متعلمًا وعالمًا حتى قضى نحبه بها . قال عنه في طبقات المفسرين : المصري الدار ، أبو حيان شيخ النحاة ، العلم الفرد ، والبحر الذي لم يعرف الجزر بل المد ، سيبويه الزمان ، والمبرد إذا حمي الوطيس بتشاجر الأقران .(٢)

ومع أن مولده بغرناطة من بلاد الأندلس في آخر شوال سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية . ونشأ بها ، وقرأ بها القراءات وجال في بلاد المغرب ، وسمع الكثير بغرناطة من الأستاذ أبي جعفر بن الزبير(٣) وأبي جعفر النحوي(٤) وغيرهم ، إلا أنه قضى بمصر أكثر عمره فقد دخلها قبل سنة ثمانين وستمائة : أي في الثلاثينيات من عمره .

يصوّر لنا بنفسه جهادَه في طلب العلم ، ثم ثناءه على مصر المباركة فيقول: "وما زلت من لدن ميزت أتتلمذ للعلماء،وأنحاز للفهماء،وأرغب في مجالسهم،وأنافس في نفائسهم،وأسلك طريقهم،وأتبع فريقهم،فلا أنتقل من إمام إلا إلى إمام ...(٥) فكم صدر أودعت علمه صدري،وحبر أفنيت في فوائده حبري،وإمام أكثرت به الإلمام،أرتع في رياض وارفة الظلال، وأكرع في حياض صافية السلسال، وأقتبس من أنوارهم، وأقتطف من أزهارهم، وأبتلج من صفحاتهم، وأقيد من شواردهم، وأنتقي من فرائدهم،

١- نسبة إلى نفزة بالزاي مدينة بالمغرب قاله ياقوت في معجم البلدان٣٤٢/٥
٢- الداودي ، طبقات المفسرين ٢٧٩/١
٣- هو: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي كان محدثًا جليلاً ناقدًا نحويًا أصوليًا أديبًا فصيحًا مفوهًا مفسرًا ، ناصحًا في الإقراء توفي سنة ثمان وسبعمائة الدرر الكامنة ٨٩/١ البدر الطالع ٣٣/١

٤- هو أحمد بن يوسف بن علي الفهري النحوي اللغوي المقرئ أحد أصحاب الشلوبين سمع الحديث من المنذري وصنف شرحين على الفصيح وتوفي بتونس سنة إحدى وستين وستمائة انظر البغية ٤٠٢/١
٥- (....) جُمل تركتها لا تخل بالسياق ،لمن أراد الرجوع إليها .

فجعلت العمل بالنهار سحيري، وبالليل سميري ...وأنا أتوسد أبواب العلماء ، وأتقصد أماثل الفهماء، وأسهر في حنادس الظلام، وأصبر على شظف الأيام، وأوثر العلم على الأهل والمال والولد، وأرتحل من بلد إلى بلد،حتى ألقيت بمصر عصا التسيار، وقلت: ما بعد عبادان من دار، هذه مشارق الأرض ومغاربها، وبها طوالع شموسها وغواربها، بيضة الإسلام،ومستقر الأعلام، فأقمت بها، المعرفة أبديها، وعارفة علم أسديها، وفاضل أصاحبه، وبها صنفت تصانيفي، وألفت تآليفي، ومن بركتها عليّ تصنيفي لهذا الكتاب المقرب من رب الأرباب " (١)

وكان مما ساعده على الشروع في التفسير وبلوغ مقصده فيه انتصابه مدرسًا له فعكف على تفسيره متفرغًا لذلك في العقد السادس من عمره قال : " ألوذ بجناب الرحمن ، وأقتصر على النظر في تفسير القرءان ، فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ العقد ، وبلغني ما كنت أروم من ذلك القصد ، وذلك بانتصابي مدرسًا في قبة السلطان المنصور ــ قدس الله مرقده ، وبلّ بمزن الرحمة معهده ، وذلك في دولة السلطان القاهر الملك الناصر(٢) الذي رد الله به الحق إلى أهله وأسبغ على العالم وارف ظله .... كان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمائة ، وهي أوائل سنة سبع وخمسين من عمري ، فعكفت على تصنيف هذا الكتاب ، وانتخاب الصفو واللباب ....الخ " (٣)

فكان ــ رحمه الله ــ إماما منتفعا به ، اتفق أهل عصره على تقديمه وإمامته ، وصنف التصانيف السائرة ، حتى قال في نفح الطيب : " له التصانيف التي سارت وطارت ، وانتشرت وما انتثرت ، وقرئت ودريت ، ونسخت وما مسحت ..."(٤)

١- مقدمة البحر المحيط ١٠١/١ باختصار غير مخل دار الكتب العلمية ــ بيروت
٢- الملك ناصر الدين محمد بن الملك سيف الدين قلاوون الصالحي سلطان الخلافة الإسلامية توفي في ذي الحجة سنة ٧٤١هـ وصلى عليه القاضي عز الدين بن جماعة إمامًا انظر البداية والنهاية ١٩٠/١٤
٣- أبو حيان ، البحر المحيط ١٠٠/١
٤- الصفدي ، نفح الطيب ٢٩٥/٣

وهاك أشهر كتبه ، سنأتي من كل فن أشهره :

ـ له "البحر المحيط" في التفسير وهو كتاب عظيم القدر(١) و"النهر الماد من البحر المحيط" (٢)

ـ وله في القراءات "عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي" . وهو متن احتوى على ١٠٤٤ بيتًا (٣)

ـ وله في النحو "تذكرة النحاة "(٤) و "اللحمة البدرية في علم العربية" (٥) و"ارتشاف الضرب في لسان العرب" (٦) و"تقريب المقرب" (٧) و"تجريد أحكام سيبويه" و"منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك" (٨) و"التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل" (٩) وغير ذلك.

ـ وله " تحفة الأريب بما في القرءان من الغريب" (١٠) رتبه على حروف المعجم وهو مختصر لطيف كثير الفائدة .

وبعد حياة حافلة بالعلم كانت وفاته في شهر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة بمنزله بظاهر القاهرة ودفن بمقابر الصوفية (١١) يعني أن عمره ـ رحمه الله ـ ناهز أحد وتسعين عامًا .

١- وقد اختصره تلميذه تاج الدين الشيخ أحمد بن عبد القادر الشهير بابن مكتوم وسماه " النهر من البحر "

٢- قام بطبعه دار الجنان ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م في ثلاث مجلدات ضبطته بوران الضناوي وهديان الضناوي

٣- كشف الظنون ، حاجي خليفة ١١٥٢/٢ ، وابن السبكي ، الطبقات ٣١/٦

٤- حققه الدكتور/ عفيف عبد الرحمن أستاذ مشارك ـ جامعة اليرموك ط: مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

٥-وتوجد منها نسخة في دار الكتب المصرية بشرح ابن هشام الأنصاري رقم ١٠٥٠

٦- وهو مطبوع بمكتبة الخانجي بالقاهرة وقال عنه السيوطي : لم يؤلف في العربية أعظم منه .

٧- قام بطبعه دار المسيرة ـ بيروت ١٩٨٣م تحقيق د/ عفيف عبد الرحمن .

٨- طبع بالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٤٧م تحقيق : سيدني جلاسر.

٩- طبع بدار القلم بدمشق ١٤١٨هـ ١٩٩٧م حققه الدكتور / حسن هنداوي.

١٠- وهو مطبوع بحماة ـ سوريا ١٣٥٤هـ وأخرى ببغداد تحقيق د/ خديجة الحديثي وحصل على تحقيقه في رسالة دكتوراه/ سمير طه المجذوب ط: المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

١١- الداودي ، طبقات المفسرين ٢٨٠/١

المقصد الثاني : عرض ونقد أبي حيان لآراء الزمخشري

المطلب الأول : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري البلاغية

لقد حوى الكشاف من دقائق البلاغة وأسرار التنزيل ما جعله وجهة العلماء ، ومنهل الظمأى حتى قيل فيه :" كتاب الكشاف ، كتاب عليّ القدر رفيع الشأن ، لم ير مثله في تصانيف الأولين ولم يرد شبيهه في تآليف الآخرين ، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين ، واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين ، ما قصّر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه ، وتمهيد قواعده وتشييد معاقده ...." (١)

ولم أجد ـ فيما اطلعت عليه ـ اعتراضًا من أبي حيان على الزمخشري في آرائه البلاغية بل وجدته مقررًا ومؤيدًا ـ اللهم إلا في النزر اليسير ـ لأن الزمخشري كان على درجة عالية في تذوق أسرار الأسلوب القرءاني مدركًا بشفافية لمحاسن النظم ، وتركيبات الجملة وما حوته من بيان وبديع يقف عندها ، فيتأمل تأليفها وما جاء على نسقها ، ويستخرج من ذلك المعاني والإشارات الدقيقة ، وهو القائل في مقدمته : " إن النحوي وإن كان أنحى من سيبويه لا يصل إلى غرائب النكت ومستودعات الأسرار في كتاب الله إلا إذا برع في عِلمَين مختصين بالقرءان وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة" (٢) فهو يلفت النظر إلى تحليل النظم وما يتطلبه من الإعراب للمبنى، ثم البلاغة للمعنى

١- الشيخ حيدر الهروي نقلا عن كشف الظنون ١٧٦/٢ غير أنه بعد ذكر الإيجابيات نبه على بعض سلبيات الزمخشري فقال :" التزم في كتابه أمورًا أذهبت رونقه وماءه وأبطلت منظره ورواءه ، فتكدرت مشارعه الصافية ، وتضيقت موارده الضافية ، وتزلزلت رتبه العالية " وذكر بعض هذه السلبيات التي كانت نتيجة اعتزاله .

٢- مقدمة تفسير الكشاف ٧/١ ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت

ـــ فتأمله يطبق ذلك في قوله تعالى:(قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذن لأمسكتم خشية الإنفاق)(١) يقول"لو" حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلابد من فعل بعدها في (لو أنتم تملكون) وتقديره: لو تملكون، فأضمر تملك إضمارًا على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل وهو "أنتم" لسقط ما يتصل به من اللفظ فـ"أنتم" فاعل الفعل المضمر، وتملكون تفسيره، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو(أنتم تملكون) فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ أ.هـ (٢)

ـــ وهو من أشد المفسرين إظهارًا لإعجاز القرءان ، وأبرز ذلك في مواطن مختلفة من تفسيره ففي قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء) (٣)
يقول الزمخشري : فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماده ، ورصانة تفسيره(٤) وأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ إفراغًا واحدًا ، ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقائق ، ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته ، والمنادي على سداده ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان .(٥)

لذا كان أبو حيان وغيره عاكفين على دراسة آراء الزمخشري البلاغية في كشافه حتى إنه ليخبر أنه أخذ الكشاف قراءة مسندة على شيخه أبي جعفر ابن الزبير ، قال أبو حيان :
" فما كان في كتابي هذا من تفسير الزمخشري ـــ رحمه الله تعالى ـــ فأخبرني به أستاذنا العلامة أبو جعفر (أحمد بن إبراهيم بن الزبير) قراءة

١- سورة الإسراء آية ١٠٠
٢- الزمخشري ، الكشاف ٦٦٩/٢
٣ - سورة النمل آية ٨٨
٤- ضمد الجراح يضمده : شده بعصابة ، والرصين : المحكم الثابت
٥- الزمخشري ، الكشاف ٣٧٤/٣ ، ٣٧٥ بتصرف

مني عليه فيه ... مسندة إلى أبي طاهر الخشوعي (١) وهو آخر من حدث عن الزمخشري " (٢)
فلا غرو أن أفاد منه ، وأكثر من النقل عنه في جل تفسيره ، مرتضيًا لآرائه البلاغية ، ففي الحديث عن الحكمة من ضرب المثل في قوله تعالى : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا) (٣)
يقول أبو حيان:قال الزمخشري: لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بذكر ضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان ، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب بأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد وقمع لسورة الجامح الآبي ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء ، فقال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)(٤) ، ومن سور الإنجيل سور الأمثال أ.هـ كلامه.(٥)

ولسموّ ألفاظ الزمخشري البلاغية في التفسير كان أحيانًا يصدّر أبو حيان تفسيره بقول الزمخشري ثم يثني على قوله بالحُسن كما ورد في قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي) (٦) قال الزمخشري: نادى الأرض والسماء بما ينادي به الإنسان المميز على لفظ التخصيص، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: (يا أرض ويا سماء) ، ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله: (ابلعي

١ - بركات بن إبراهيم بن طاهر بن بركات بن إبراهيم بن علي بن محمد القرشي الدمشقي أبو طاهر الخشوعي مات سنة ٥٩٨هـ انظر : ذيل التقييد ج: ١ ص: ٤٨٩
٢- أبو حيان ، البحر المحيط ١١٤/١ بتصرف
٣- سورة البقرة آية ١٧
٤- سورة العنكبوت آية ٤٣
٥- انظر : الكشاف ٧٩/١ ونقله أبو حيان ، البحر المحيط مقررًا اياه ١/ ٢٠٨ ط : دار الكتب العلمية ـــ بيروت وهذه النسخة من الكتاب فيها خطأ إذ قد وضع المحققون الأفاضل هذا الكلام تحت قوله (صم بكم عمي) آية ١٨ ، والصواب ما ذكرته وأنها تحت قوله (مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا) آية ١٧ فليتنبه.
٦- سورة هود آية ٤٤

ماءك وأقلعي) من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأنّ السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوا عظمته وجلاله وثوابه وعقابه، وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفرعون من التوقف دون الامتثال له والنزول عن مشيئته على الفور من غير ريب. فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا بطء. فعقب الزمخشري قائلاً:وبسط الزمخشري وذيل في هذا الكلام الحُسن (١)

بل ونجد الزمخشري يذكر دقائق بلاغية مثل الفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة ، فيذكر ذلك أبو حيان ومن إقراره له يذكر شواهد شعرية مؤيدة له .

فيقول الزمخشري في قوله تعالى : (صم بكم عمي) (٢) وهذا من التشبيه البليغ عند المحققين ، وليس من باب الاستعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون. والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلواً عنه، صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام، كقول زهير(٣):

لدَى أسدٍ شاكي السلاحِ مقذّفٍ له لِبَد أظفاره لم تقلّم(٤)

فيقرر ذلك أبو حيان بقوله: وقد سمع عن العرب لهذا نظائر أنشد الزمخشري من ذلك أبياتًا وأنشد غيره :

أعمى إذا ما جارتي برزت حتى يواري جارتي الخدر

١- أبو حيان ، البحر المحيط ٢٢٨/٥
٢- سورة البقرة آية ١٨
٣- زهير بن ربيعة بن قرط أبي سلمى شاعر جاهلي ، وهو أحد الثلاثة المتقدمين على سائر الشعراء وهم امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير ،ولم يدرك الإسلام قيل : توفي قبل مبعث الرسول بسنة ، سنة ٦١٠م وأدرك الإسلام ابنه كعب بن زهير الذي أسلم انظر: خزانة الأدب ٣٧٥/١ والشعر والشعراء ٧٦/١
٤ - البيت لزهير بن أبي سلمى انظر : شرح المعلقات السبع ص ١٤٦ ومعنى شاكى السلاح : أي سلاحه شائك ذو شوكة ، والمقذف: الغليظ اللحم ، واللبد : الشعر المتراكب بين كتفيه ، وأظفاره لم تقلم : أي هو تام السلاح حديده ، يريد الجيش واللفظ على الأسد . انظر : شرح ديوان زهير لأبي العباس الشيباني ثعلب ص٢٤ ط : الدار القومية للنشر بمصر

وأصُم عما كان بينهما أذني وما في سمعها وقر(١)

انتهى كلام الزمخشري(٢)

وأقول :لم يقصد ذكر المنافقين تصريحًا وإنما قصد ذكرهم بأوصافهم من نحو(ومن الناس من يقول آمنا وما هم بمؤمنين...الخ) (٣)
أيًا يكن الأمر فهذا يدل على قناعة أبي حيان التامة في هذا الفرق الدقيق الذي ذكره الزمخشري بين التشبيه البليغ والاستعارة .

بل ويجعل أبو حيان من ذلك قاعدة يطبقها عند قوله تعالى :(وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) (٤)
وهو بصدد الحديث عن أن الصحابة ﷺ حملوا الخيط الأبيض والخيط الأسود على حقيقتهما إلى أن نزل قوله (من الفجر) فصارا مجازين قال : شبه بالخيط الأبيض ما يبدوا من الفجر المعترض في الأفق ، وبالأسود ما يمتد معه من غبش الليل شبها بخيطين أبيض وأسود ، وأخرجه من الاستعارة إلى التشبيه قوله (من الفجر) كقولك رأيت أسدًا من زيد فلو لم يذكر من زيد كان استعارة ، وكان التشبيه هنا أبلغ من الاستعارة ، لأن الاستعارة لا تكون إلا حيث يدل عليها الحال ، أو الكلام وهنا لو لم يأت من الفجر لم يعلم الاستعارة ؛ ولذلك فهم الصحابة الحقيقة من الخيطين قبل نزول (من الفجر) حتى إن بعضهم وهو عدي بن حاتم غفل عن هذا التشبيه وعن قوله (من الفجر) فحمل الخيطين على الحقيقة وحكى ذلك لرسول الله ﷺ فضحك وقال : "إن كان وسادك لعريضًا" ، وروي : "إنك لعريض القفا ، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل" (٥) .

١ - البيتان للدارمي انظر للقرطبي ١٥٠/١
٢- أبو حيان ، البحر المحيط ٢١٦/١
٣ - سورة البقرة ٨
٤- سورة البقرة آية ١٨٧
٥- أخرجه البخاري ١٦٤٠/٤ ومسلم ٧٦٦/٢ رقم ١٠٩٠ وابن خزيمة ٢٠٩/٣ وانظر البحر المحيط لأبي حيان ٥٧/٢

ـ وأبو حيان كما ينتقي منه القواعد البلاغية ينتقي منه أجمل الفروق البلاغية دون التعقيب عليه راضيًا عن قوله ، قال الزمخشري: فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدونني بمال وأنا أغني منكم ، وبين أن يقوله بالفاء؟ قلت: إذا قلتُه بالواو، فقد جعلتُ مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى ، وهو مع ذلك يمدني بالمال ، وإذا قلته بالفاء ، فقد جعلته ممن خفيت عنه حالي ، وأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده ، كأني أقول له: أنكر عليك ما فعلت ، فإني غنيّ عنه وعليه ورد قوله:(فما آتاني الله) (١)

بل تجد أبا حيان يمدح الزمخشري ويثني عليه بحسن العرض في قوله تعالى (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) (٢) ويقول : "ذكر الزمخشري هذين القولين بألفاظ منمقة على عادته في حكاية أقوال المتقدمين" . (٣) ولو لم توجد في هذا الباب البلاغي من أبي حيان إلا هذه الشهادة للزمخشري لكفت في الثناء عليه .

وأذكر من المآخذ القليلة التي أخذها أبو حيان على الزمخشري في بلاغته سر تكرار شهادة الكافرين على أنفسهم في قوله تعالى (قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) (٤)
قال الزمخشري: (فإن قلت): لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟
(قلت): الأولى حكاية لقولهم: كيف يقولون ويعترفون ، والثانية ذمّ لهم وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستجاز عذابه، وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين مثل حالهم؛ انتهى.

١- سورة النمل آية ٣٦ وانظر البحر المحيط ٧١/٧
٢- سورة القيامة آية ٤
٣- أبو حيان ، البحر المحيط ٣٧٦/٨
٤- سورة الأنعام آية ١٣٠

عقب أبو حيان بقوله : ونقول لم تتكرر الشهادة لاختلاف المخبر ومتعلقها فالأولى إخبارهم عن أنفسهم والثانية: إخباره تعالى عنهم أنهم شهدوا على أنفسهم بالكفر فهذه الشهادة غير الأولى .انتهى كلام أبي حيان (١)

وأقول : هذه المآخذ القليلة لا تضير الزمخشري فله فيها مخرج وهو أنها تكررت في الآية لفظًا وإن اختلفت في متعلقها ، وعلى كلّ فهو صاحب مدرسة بلاغية في تطبيق قواعدها على ألفاظ وجمل القرءان الكريم بحيث يغترف من علمه القاصي والداني ، ولم ينكر ذلك أحد حتى قال صاحب (نواهد الأبكار)(٢) بعد ذكر قدماء المفسرين :" ثم جاءت فرقة أصحاب النظر في علوم البلاغة التي بها يدرك وجه الإعجاز وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب " .

وحتى قال عنه في التفسير والمفسرون " برز في حلة بديعة بجمال أسلوبه وكمال نظمه ، وإنا لنكاد نقطع ـ إذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج ما يحتويه القرءان من ثروة بلاغية في المعاني والبيان ـ بأنه لا يوجد تفسير أوسع مجالاً في جهوده في هذا الصدد من تفسير الزمخشري " (٣)

١- انظر البحر المحيط ٢٢٦/٤
٢- للسيوطي ، نقلاً عن حاجي خليفة في كشف الظنون ١٤٧٦/٢
٣- الأستاذ الدكتور/محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون ٤٤٣/١ ط : دار الكتب الحديثة

المطلب الثاني : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري اللُّغوية

كما برع الزمخشري في فنون البلاغة فقد كان له قدم راسخ في الاشتقاق اللغوي والتصريف ، ولمَ لا ؟ وهو صاحب القاموس اللغوي (الأساس) و(الفائق في غريب الحديث) .

فلا عجب أن يستشهد بأقواله أبو حيان ويقول (هو المشهور في اللغة والفصيح) . ففي قوله تعالى (ولا جُنُبًا إلا عابري سبيل) (١)

قال الزمخشري : الجُنُب يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث ، لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب انتهى.

فيعقب أبو حيان عليه بقوله : والذي ذكره هو المشهور في اللغة والفصيح ، وبه جاء القرآن. وقد جمعوه جمع سلامة بالواو والنون قالوا: قوم جنبون، وجمع تكسير قالوا: قوم أجناب.وأما تثنيته فقالوا: جنبان.(٢)

وتارة يستشهد بقوله في ثنايا تفسيره ولا يعقب عليه مما يفيد أيضًا رضاه بقوله فانظر في قوله تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض) (٣)

قال أبو حيان والبقية : هنا يراد بها الخير والنظر والجزم في الدين، وسَمّي أهلَ الفضل والجود بقية، لأنّ الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل. فلان من بقية القوم أي من خيارهم، وبه فسر بيت الحماسة:

إن تذنبوا ثم يأتيني بقيتكم (٤)

ومنه قولهم: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا. وإنما قيل:بقية لأنّ الشرائع والدول ونحوها قوتها في أولها، ثم لا تزال تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول. و(بقية) فعيلة اسم فاعل للمبالغة.

١- سورة النساء آية ٤٣

٢- أبو حيان ، البحر المحيط ٢٦٧/٣

٣- سورة هود آية ١١٦

٤- قائله روشيد بن كثير الطائي والشطر الثاني * فما عليّ بذنب عندكم فوت والمعنى : إن تذنبوا ثم يأتيني خياركم يعتذرون عنكم فلا فوت . انظر :مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ٤٢٠/٢ حاشية على تفسير الكشاف .

وقال الزمخشري: ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى أي: فلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه.(١)

ولم يكن أبو حيان في الجانب اللغوي مستشهدًا به فحسب ، بل كان أيضًا ناقدًا بصيرًا بأن المعنى اللغوي وإن كان إطلاقه صحيحًا لكنه لا يناسب هذا المقام ، ونلاحظ ذلك في تفسير قوله تعالى (فلا يؤمنون إلا قليلا) (٢)

يقول الزمخشري: إلا إيمانا قليلاً أي: ضعيفا ركيكا لا يعبأ به ، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره. وأراد بالقلة العدم كقوله:

قليل التشكي للهموم تصيبه (٣)

أي عديم التشكي.

وقال ابن عطية: من عبر بالقلة عن الإيمان قال: هي عبارة عن عدمه ومنه ما حكى سيبويه ، من قولهم: أرض قلما تنبت كذا ، وهي لا تنبته جملة.

فعقب عليهما أبو حيان قائلاً : وهذا الذي ذكره الزمخشري وابن عطية من أن التقليل يراد به العدم هو صحيح في نفسه ، لكن ليس هذا التركيب الاستثنائي من تراكيبه. فإذا قلت: لا أقوم إلا قليلاً، لم يوضع هذا لانتفاء القيام البتة ، بل هذا يدل على انتفاء القيام منك إلا قليلاً فيوجد منك. وإذا قلت: قلما يقوم أحد إلا زيد ، وأقل رجل يقول ذلك احتمل هذا ، أن يراد به التقليل المقابل للتكثير، واحتمل أن يراد به النفي المحض. وكأنك قلت: ما يقوم أحد إلا زيد ، وما رجل يقول ذلك. أمّا أن تنفى ثم توجب ويصير الإيجاب بعد النفي يدل على النفي فلا ، إذ تكون إلا وما بعدها على هذا التقدير، جيء بها لغواً لا فائدة فيه، إذ الانتفاء قد فهم من قولك:لا أقوم. فأيُّ فائدة في استثناء مثبت يراد به الانتفاء المفهوم من الجملة السابقة،

١- أبو حيان البحر المحيط ٢٧١/٥

٢- سورة النساء آية ٤٦

٣ - قليل التشكي للهموم تصيبه * كثير الهوى شتى النوى والمسالك

البيت : لتأبط شرًا يمدح شمس بن مالك من رؤساء العرب ، وقيل : لأبي كثير الهذلي يمدح تأبط شرًا ، ومعناه : عديم الشكوى ليظهر المدح حال كونه مصابًا انظر : مشاهد الإنصاف على شاهد الكشاف بتصرف للشيخ / محمد عليان المرزوقي ٥٠٨/١ بهامش الكشاف ط : دار الكتب العلمية — بيروت

وأيضا فإنه يؤدي إلى أن يكون ما بعد إلا موافقا لما قبلها في المعنى.
وباب الاستثناء لا يكون فيه ما بعد إلا موافقا لما قبلها، وظاهر قوله: (فلا يؤمنون إلا قليلا) إذا جعلناه عائداً إلى الإيمان، أنّ الإيمان يتجزأ بالقلة والكثرة، فيزيد وينقص ، والجواب: إن زيادته ونقصه هو بحسب قلة المتعلقات وكثرتها.(١)
وهذا التعقيب الهادئ يدل أنه كان منصفا لا يهدف إلا إلى تصحيح ما ذكره الزمخشري في تفسير الآية .

ـ وقد يوافق أبو حيان الزمخشري على مبدأ وهو عدم الجرأة على كتاب الله في تفسيره بالإسراف في استعمال اللغة ، ولكنه فقط يعترض عليه في أن اللفظ المستشهد به غير مناسب لهذا المبدأ ، بل اللفظ مما يجوز استعماله ففي قوله تعالى في آيات القصاص (فمن عفي له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف) (٢) يقول الزمخشري فإن قلت: فقد ثبت قولهم عفا أثره إذا محاه وأزاله ، فهلا جعلت معناه : فمن محي له من أخيه شيء ؟.
قلت: عبارة قيلت في مكانها، والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس ، فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نائية عن مكانها، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ إذا عضل عليه تخريج المشكل من كلام الله على اختراع لغة. وادّعاء على العرب ما لا تعرف ، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها. انتهى كلامه.
يعقب أبو حيان قائلاً : وإذا ثبت أن عفا يكون بمعنى محا فلا يبعد حمل الآية عليه ، ويكون إسناد عفي لمرفوعه إسناداً حقيقيا لأنه إذ ذاك مفعول به صريح ، وإذا كان لا يتعدّى كان إسناده إليه مجازاً وتشبيها للمصدر بالمفعول به، فقد يتعادل الوجهان أعني: كون عفا اللازم لشهرته في الجنايات، وعفا المتعدي لمعنى محا لتعلقه بمرفوعه تعلقا حقيقيا ـ وقول الزمخشري: (وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم) إلى آخره ـ هذا الذي ذكره هو فعل غير المأمونين على دين الله ، ولا الموثوق بهم في نقل الشريعة ، والكذب من أقبح المعاصي وأذهبها لخاصة الإنسان، وخصوصاً على الله وعلى رسوله.

١- أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٦/٣
٢- سورة البقرة آية ١٧٨

وقال أبو محمد بن حزم (١) ما معناه: "إنه قد يَصحَبُ الإنسانَ وإن كان على حالة تُكرَه ، إلاّ ما كان من الكاذب ، فإنه يكون أول مفارق له" لكن لا يناسب قول الزمخشري هنا: (وترى كثيراً) إلى آخر كلامه إثر قوله: (فإن قلت) إلى آخره ؛ لأن مثل هذا القول هو حمل العفو على معنى المحو، وهو حمل صحيح واستعمال في اللغة ، فليس من باب الجرأة ، واختراع اللغة . انتهى كلام أبي حيان (٢)
فلله دره في هذه المفارقة الدقيقة بين جواز استعمال اللفظ الذي دلت عليه اللغة ، ولم يكن له معارض لغوي أو شرعي ، وبين تقريره للمبدأ الذي قرره الزمخشري من الجرأة على كتاب الله في التفسير.
ـ وأختم بأن أبا حيان مع كونه عمدة في اللغة لكنه أحال القارئ على كلام طيب يوقف عليه عند الزمخشري في معنى (كلا) ففي قوله تعالى : (كلا بل تحبون العاجلة) (٣) قال أبو حيان : رد عليهم وعلى أقوالهم ، أي ليس كما زعمتم ، وإنما أنتم قوم غلبت عليكم محبة شهوات الدنيا حتى تتركون معه الآخرة والنظر في أمرها ، وقال الزمخشري: (كلا) ردع ، وذكر في كتابه ما يوقف عليه فيه.(٤)
فهذا أيضًا من الثناء الذي يشهد بعلو كعب الزمخشري لدى أبي حيان ورفعة مكانته عنده في الجانب اللغوي.

١- أبو محمد علي بن أحمد بن سعد بن حزم بن غالب بن صالح الأندلسي القرطبي الظاهري ولد في ٣٨٣هـ فقيه أديب أصولي محدث متكلم يأخذ بظاهر النص توفي بالأندلس ٤٥٦هـ انظر وفيات الأعيان ٤٢٨/١ ومعجم المؤلفين ١٦/٧
٢- أبو حيان ، البحر المحيط ١٦/٢
٣- سورة القيامة آية ٢٠
٤- أبو حيان ، البحر المحيط ٨/ ٣٨٠

المطلب الثالث : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري النَحْويّة

مع أن الزمخشري هو العالم المبرز في النحو بلا منازع ، فقد انتقده أبو حيان وفي رأيي أنه وقف منه موقف الإنصاف وسنرى الأدلة على ذلك ، ونستطيع أن نقسّم منهج أبي حيان معه في مواقفه النحوية إلى ثلاثة طرق:

الأول : الموافقة والتقرير .

الثاني : التنبيه على اصطلاح نحوي خاص بالزمخشري .

الثالث : الاعتراض وتحرير الصواب .

أما الطريق الأول : فهو أن يوافقه ويقره فيما ذهب إليه، قائلاً هو الصواب ومعللاً ذلك كما في قراءة رفع قوله تعالى(الذي تساءلون به والأرحامُ) (١) ذكر أبو حيان توجيه الرفع لابن عطية (٢) والزمخشري لكنه قرر قول الزمخشري ورجحه قائلاً : أما الرفع فوجّه على أنه مبتدأ والخبر محذوف قدره ابن عطية : والأرحام أهل أن توصل. وقدره الزمخشري: والأرحام مما يتقي ، أو مما يتساءل به ، وتقديره أحسن من تقدير ابن عطية ، إذ قدّر ما يدل عليه اللفظ السابق ، وابن عطية قدر من المعنى. انتهى كلام أبي حيان (٣)

وهذا يدلنا على منهج أبي حيان عند تقدير المحذوف أن يكون مما دل عليه اللفظ فإن لم يوجد فالمعنى ، بقرينة قوله "أحسن" .

ـ أو يوافقه فيما ذهب إليه من غير تعليق عليه كما في قوله تعالى حكاية عن عاد قوم هود (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك)(٤) وعن في (عن

١- سورة النساء آية ١

٢- عبد الحق بن غالب بن تمام ، ابن عطية الغرناطي صاحب تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز كان فقيهًا نحويًا أديبًا من بيت علم وجلالة غاية في توقد الذهن وحسن الفهم توفي ٥٤٦ هـ وقيل غير ذلك انظر: معجم المؤلفين ٩٣/٥

٣- أبو حيان ، البحر المحيط ١٦٥/٣

٤- سورة هود آية ٥٣

قولك) حال من الضمير في (تاركي آلهتنا) كأنه قيل: صادرين عن قولك، قاله الزمخشري.(١)

وأما الطريق الثاني :فهو أن ينبه على مصطلح نحوي يسير عليه الزمخشري والفائدة من ذلك ، عدم تخطئة الزمخشري في إعرابه ، وألا يُظنّ أن هذا خطأ من الناسخ . كما في قوله تعالى : (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية) (٢) يشير إلى إعراب (الوصية) أنها نائب فاعل للفعل (كُتب) فيقول أبو حيان : وهذا الإعراب هو على ما يقتضيه الظاهر من أن الوصية مفعول لم يسم فاعله مرفوع بكُتب. والزمخشري يسمي المفعول الذي لم يسم فاعله فاعلاً وهذا اصطلاحه ، قال في تفسيره: والوصية فاعل كتب، وذُكّر فعلُها للفاصل ، ولأنها بمعنى: أن يوصي ، ولذلك ذُكّر الراجع في قوله (فمن بدّله بعد ما سمعه). اهـ

يعقب أبو حيان بقوله : ونبهت على اصطلاحه في ذلك لئلا يُتوهم أن تسمية هذا المفعول الذي لم يسم فاعله فاعلاً سهو من الناسخ . انتهى كلام أبي حيان (٣)

وهذا الموقف النبيل من أبي حيان إشارة إلى أنه لم يكن قناصًا ينصب الشراك لأخطاء الزمخشري ـ ولو كان الأمر كذلك ـ لشنّع عليه في كل مصطلح يرد عليه مثل هذا ، ولكنه يُعلّمُنا أنه ينشد الحق فيما خالف فيه ، وهذه وصلة جد مفيدة لما يأتي في الطريق الثالث من الاعتراض عليه وتحرير الصواب .

ـ وليس معنى ذلك أن أبا حيان كان يسمح للزمخشري بأن يطبق مصطلحات أصولية في غير موضعها، فقد تعجّب منه في تطبيق مصطلح (الأحكام ذات العلتين) على قوله تعالى : (يذرؤكم فيه) (٤)

١- وذكر قولا آخر أن (عن) للتعليل فتتعلق بتاركي كأنه قيل : ما نحن بتاركي آلهتنا لقولك أي : لا يكون قولك سببًا لتركنا انتهى بتصرف انظر : أبو حيان ، البحر المحيط ٢٣٣/٥

٢- سورة البقرة آية ١٨٠

٣- أبو حيان ، البحر المحيط ٢٤/٢

٤- سورة الشورى آية ١١

قال الزمخشري : يكثركم ، يقال ذرأ الله الخلق: بثهم وكثرهم، والذرء والذروء والذرواء أخوات في هذا التدبير، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل. والضمير في (يذرؤكم) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغير مما لا يعقل ، وهي من الأحكام ذات العلتين . انتهى.

قال أبو حيان معقبًا : وقوله (وهي من الأحكام ذات العلتين) اصطلاح غريب (١) ويعني أن الخطاب يغلب على الغيبة إذا اجتمعا فتقول: أنت وزيد تقومان ، والعاقل يغلب على غير العاقل إذا اجتمعا ، فتقول: الحيوان وغيرهم يسبحون خالقهم. انتهى كلام أبي حيان (٢)

١- الذي جعل هذا المصطلح غريبًا لدى أبي حيان هو تطبيق الزمخشري له هنا على هذه الآية، لكنّ المصطلح ليس غريبًا في علم الأصول وملخصه : أنه إذا ورد الحكم بشيء هل تتعدد علله ؟ اختلف الأصوليون فمنهم من ذهب إلى عدم تعدد العلل بناءً على أن العلة الأولى كافية في الحكم والثانية لم تزد شيئًا .ومنهم من ذهب إلى جواز تعدد العلل والراجح هو الأول — عدم تعدد العلل — لأننا لو قلنا بتعددها لأصبحت كل واحدة منها جزء علة ولا تؤثر إلا بانضمام الثانية لها ومثلوا لذلك بما في الصحيح قالت أم سلمة رضي الله عنها للنبي ﷺ فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة ؟ قال : بنت أم سلمة ! قلت : نعم ، فقال: لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي ، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن) صحيح البخاري ج: ٥ ص: ١٩٦١ رقم ٤٨١٣ والشاهد فيه أن النبي ﷺ بنى حكم التحريم على علتين الأولى : أنها ربيبة، والثانية : أنها ابنة أخيه من الرضاع فقال القرطبي: فيه تعليل الحكم بعلتين فإنه علل تحريمها بكونها ربيبة وبكونها بنت أخ من الرضاعة كذا قال ورد عليه ابن حجر في الفتح قال : والذي يظهر أنه نبه على أنها لو كان بها مانع واحد لكفى في التحريم ، فكيف وبها العلتان فليس من التعليل بعلتين في شيء ؛ لأن كل وصفين يجوز أن يضاف الحكم إلى كل منهما لو انفرد فإما أن يتعاقبا فيضاف الحكم إلى الأول منهما كما في السببين إذا اجتمعا ومثاله لو أحدث ثم أحدث بغير تخلل ظاهر فالحدث الثاني لم يعمل شيئا أو يضاف الحكم إلى الثاني كما في اجتماع السبب والمباشرة وقد يضاف إلى أشبههما وأنسبهما سواء كان الأول أم الثاني فعلى كل تقدير لا يضاف إليهما جميعا وإن قدر أنه يوجد فالإضافة إلى المجموع ويكون كل منهما جزء علة لا علة مستقلة فلا تجتمع علتان على معلول واحد هذا الذي يظهر والمسألة مشهورة في الأصول وفيها خلاف أ.هـ فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٤٤/٩

٢ – أبو حيان ، البحر المحيط ٤٨٨/٧

كما ترى أبا حيان محق في ذلك فليس هذا مقام إطلاق مصطلح (الأحكام ذات العلتين) بل هو موضع تغليب العقلاء على غيرهم إذا اجتمعوا في ضمير واحد ، كتغليب الذكر على الأنثى وتغليب الحاضر على الغائب ، عند اجتماعهم في ضمير واحد .

وأما الطريق الثالث :فهو الاعتراض وتحرير الصواب

ومنهجه في ذلك : على نوعين

أ) – أن يأتي بقول الزمخشري كاملاً ثم يعقب عليه بما يراه حتى يفيد القارئ من رأيه :

المثال الأول في قوله تعالى (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم) (١)

يقول أبو حيان :

وأجازوا أن يكون جواب (لمّا) محذوفا لفهم المعنى ، كما حذفوه في قوله:(فلما ذهبوا به وأجمعوا) (٢) . قال الزمخشري: وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس الدال عليه انتهى.

– وبدأ أبو حيان في التعقيب عليه بأن الزمخشري كان في غنىً عن تقدير محذوف ، وأن النكران عليه يشتد حين يقول (والحذف أولى) ، وأن منهج أبي حيان عدم تقدير محذوف مع إمكان إعمال المذكور ، وأنه لا يلجأ إلى الحذف إلا لضرورة تدعو لذلك .

من أجل ذلك قال أبو حيان :

وقوله – أي الزمخشري – (لاستطالة الكلام) غير مسلّم؛ لأنه لم يستطل الكلام ، لأنه قدره (خمدت) ، وأي استطالة في قوله : (فلما أضاءت ما حوله) خمدت ؟ بل هذا لمّا وجوابها، فلا استطالة بخلاف قوله: (فلما ذهبوا به) ، فإن الكلام قد طال بذكر المعاطيف التي عطفت على الفعل وذكر متعلقاتها بعد الفعل الذي يلي لمّا، فلذلك كان الحذف سائغاً لاستطالة الكلام . وقوله: (مع أمن الإلباس) وهذا أيضاً غير مسلّم ، وأي أمن إلباس في هذا ؟ ولا شيء يدل على المحذوف ، بل الذي يقتضيه ترتيب الكلام وصحته ووضعه مواضعه أن يكون(ذهب الله بنورهم)هو الجواب ، فإذا جعلت غيره الجواب مع قوة ترتب ذهاب الله بنورهم على الإضاءة ، كان

١- سورة البقرة آية ١٧

٢- سورة يوسف آية ١٥

ذلك من باب اللغز، إذ تركت شيئاً يبادر إلى الفهم وأضمرت شيئاً يحتاج في تقديره إلى وحي يسفر عنه ، إذ لا يدل على حذفه اللفظ مع وجود تركيب (ذهب الله بنورهم) ولم يكتف الزمخشري بأن جوز حذف هذا الجواب حتى ادعى أن الحذف أولى ، قال:ـ أي : الزمخشري ـ (وكان الحذف أولى من الإثبات ، لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ للفظ في أداء المعنى ، كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت ، فبقوا خابطين في ظلام ، متحيرين متحسرين على فوت الضوء ، خائبين بعد الكدح في إحياء النار) انتهى.

ثم عقب أبو حيان بالتحليل قائلاً :

وهذا الذي ذكره نوع من الخطابة لا طائل تحتها ؛ لأنه يمكن له ذلك لو لم يكن يلي قوله: (فلما أضاءت ما حوله) ، قوله (ذهب الله بنورهم). وأما ما في كلامه بعد تقدير خمدت إلى آخره ، فهو مما يحمّل اللفظ ما لا يحتمله ، ويقدر تقادير وجملاً محذوفة لم يدل عليها الكلام ، وذلك عادته في غير ما كلام في معظم تفسيره ، ولا ينبغي أن يفسر كلام الله بغير ما يحتمله ، ولا أن يزاد فيه ، بل يكون الشرح طبق المشروح من غير زيادة عليه ولا نقص منه . انتهى كلام أبي حيان (١)

ـ وهذا الذي ذكره أبو حيان عليه جلّ المفسرين ولهذا عنون الزركشي(٢) (فصلاً) في أن الحذف خلاف الأصل،صدّره بقوله: "والحذف خلاف الأصل وعليه ينبني فرعان أحدهما : إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أولى ؛ لأن الأصل عدم التغيير والثاني : إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته كان الحمل على قلته"(٣)

١- أبو حيان ، البحر المحيط ١/ ٢١٣ دار الكتب العلمية ـ بيروت

٢- الزركشي : محمد بن بهادر بن عبد الله المصري المولد الشافعي فقيه أصولي محدث ولد ٧٤٥هـ وتوفي ٧٩٤ هـ له البحر المحيط في الأصول والبرهان في علوم القرءان وسلاسل الذهب وغير ذلك انظر : الدرر الكامنة ١٧/٤ وهدية العارفين ٢/ ١٧٤

٣- الزركشي ، البرهان في علوم القرءان ١٠٤/٣ دار المعرفة ـ بيروت ١٣٩١هـ تحقيق: الأستاذ/ محمد أبو الفضل إبراهيم

ونلاحظ أن هذا من المآخذ المتكررة على الزمخشري كثيراً حتى رد عليه أبو حيان أيضاً ـ بأنه لا حاجة للإضمار مع صحة تقدير الكلام بدونه ـ في مواضع كثيرة منها

١ـ قوله تعالى (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) (١) قال :وجوز الزمخشري في: (وأخرى) أن تكون مجرورة بإضمار رُبَّ.

وعقب عليه أبو حيان : وهذا فيه غرابة، لأن رُبَّ لم تأت في القرآن جارة، مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب، فكيف يؤتى بها مضمرة ؟ وإنما يظهر أن (وأخرى) مرفوع بالابتداء، فقد وصفت بالجملة بعدها، وقد أحاط هو الخبر. ويجوز أن تكون في موضع نصب بمضمر يفسره معنى (قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا): أي وقضى الله أخرى. وقد ذكر الزمخشري هذين الوجهين ومعنى (قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) بالقدرة والقهر لأهلها، أي قد سبق في علمه ذلك، وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها.(٢)

٢ـ وكذلك في قوله تعالى (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) (٣) يقول (ذلك): إشارة إلى ما فعل بالكفار من إضلال أعمالهم ، وبالمؤمنين من تكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم. و(ذلك) مبتدأ وما بعده الخبر، أي كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق قال الزمخشري: ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف تقديره: الأمر ذلك، أي كما ذكر بهذا السبب، فيكون محل الجار والمجرور منصوباً. انتهى.

ـ فعقب عليه أبو حيان قائلا: ولا حاجة إلى الإضمار مع صحة الوجه وعدم الإضمار .(٤)

١- سورة الفتح آية ٢١ وفي تفسيرها : قال ابن عباس، والحسن، ومقاتل: بلاد فارس والروم وما فتحه المسلمون. وقال الضحاك، وابن زيد، وابن إسحاق: خيبر .وقال قتادة: مكة، وهذا القول يتسق معه المعنى. وفي قوله: (لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) دلالة على تقدم محاولة لها،وقوات درك المطلوب في الحال، كما كان في مكة. وقال الزمخشري: هي مغانم هوازن في غزوة حنين. انظر البحر المحيط ٩٦/٨ والزمخشري ٣٣٢/٤

٢- أبو حيان ، البحر المحيط ٩٦/٨، ٩٧

٣- سورة محمد آية ٣

٤- أبو حيان ، البحر المحيط ٧٤/٨

٣ــ وكذلك في قوله تعالى (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) (١) أجاز الزمخشري أن يكون على حذف المضاف، أي : على كل ذي قلب متكبر، بجعل الصفة لصاحب القلب. انتهى

عقب أبو حيان : ولا ضرورة تدعو إلى اعتقاد الحذف (٢).

وهناك عشرات الأمثلة التي تدل على أن الزمخشري كان مسرفا في أسلوب تقدير المحذوف من غير ضرورة ، لكن يجدر التنبيه إلى أمانة أبي حيان معه في النموذج المذكور سابقا من آية سورة الفتح حينما أشار إلى أن الزمخشري لم يكتف بذكر المحذوف بل كان على صواب عندما أعرب (أخرى) مبتدأ وما بعدها خبر فرارًا من الحذف .

المثال الثاني : في قوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا الذين يقيمون الصلاة) (٣)

قال الزمخشري. (فإن قلت): الذين يقيمون ما محله ؟ (قلت): الرفع على البدل من الذين آمنوا، أو على هم الذين يقيمون انتهى.

يعقب أبو حيان بقوله : ولا أدري ما الذي منعه من الصفة ، إذ هو المتبادر إلى الذهن ؛ لأن المبدل منه في نية الطرح ، وهو لا يصح هنا طرح الذين آمنوا ؛ لأنه هو الوصف المترتب عليه صحة ما بعده من الأوصاف.(٤)

ب) ــ أن يذكر الصواب الذي يرتضيه في إعراب اللفظ أو الجملة ثم ينقد الزمخشري في رأيه مفصلا الرد عليه .

المثال الأول : في قوله تعالى (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم)(٥) ذهب أبو حيان ــ وهو يبين موقع جملة (يهلكون أنفسهم) من الإعراب ــ أنها استئنافية ، فقال : والظاهر أنها جملة

١- سورة غافر آية ٣٥
٢- أبو حيان ، البحر المحيط ٤٤٦/٧
٣- سورة المائدة آية ٥٥
٤- أبو حيان ، البحر المحيط ٥٢٥/٣
٥- سورة التوبة آية ٤٢

استئناف إخبار منه تعالى . ثم نقد الزمخشري مبينًا عدم رجحان ما ذهب إليه فقال :

وقال الزمخشري: (يهلكون أنفسهم) إما أن يكون بدلا من سيحلفون ، أو حالا بمعنى مهلكين . والمعنى:أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب ، وما يحلفون عليه من التخلف . ويحتمل أن يكون حالا من قوله : (لخرجنا) أي : لخرجنا معكم وإنْ أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما يحملها من المسير في تلك الشقة ، وجاء به على لفظ الغائب لأنه مخبر عنهم . ألا ترى أنه لو قيل: سيلحفون بالله لو استطاعوا لخرجوا لكان سديدا ؟ يقال: حلف بالله ليفعلن و لأفعلن ، فالغيبة على حكم الإخبار، والتكلم على الحكام انتهى.

فنجد أبا حيان يعقب عليه بنقده في كل إعراب على استقلاله فيقول :

ــ أما (كون يهلكون بدلا من سيحلفون) فبعيد ، لأن الإهلاك ليس مرادفا للحلف ، ولا هو نوع من الحلف، ولا يجوز أنْ يبدل فعل من فعل إلا أن يكون مرادفا له أو نوعا منه.

ــ وأما كونه (حالا من قوله: لخرجنا) فالذي يظهر أن ذلك لا يجوز، لأن قوله (لخرجنا) فيه ضمير التكلم ، فالذي يجري عليه إنما يكون بضمير المتكلم. فلو كان حالا من ضمير لخرجنا لكان التركيب: نهلكُ أنفسنا أي: مهلكي أنفسنا.

ــ وأما (قياسه ذلك على حلف بالله ليفعلنَّ و لأفعلنَّ) فليس بصحيح ؛ لأنه إذا أجراه على ضمير الغيبة لا يخرج منهم إلى ضمير المتكلم ، لو قلت: حلف زيد ليفعلن وأنا قائم ، على أن يكون وأنا قائم حالا من ضمير ليفعلن لم يجز، وكذا عكسه نحو:حلف زيد لأفعلن يقوم ، تريد قائما لم يجز.

ــ وأما قوله: (وجاء به على لفظ الغائب لأنه مخبر عنهم) فهي مغالطة ليس مخبرا عنهم بقوله: (لو استطعنا لخرجنا معكم) ، بل هو حاك لفظ قولهم. ثم قال ــ أي الزمخشري ــ (ألا ترى لو قيل: لو استطاعوا لخرجوا لكان سديدا إلى آخره) كلام صحيح ، لكنه تعالى لم يقل ذلك إخبارا عنهم ، بل حكاية . والحال من جملة كلامهم المحكي ، فلا يجوز أن يخالف بين ذي الحال وحاله لاشتراكهما في العامل . لو قلت: قال زيد: خرجت يضرب خالدا ، تريد اضرب خالدا، لم يجز. ولو قلت: قالت

هند: خرج زيد أضرب خالداً، تريد خرج زيد ضارباً خالداً، لم يجز.
انتهى كلام أبي حيان (١)
فنلاحظ أنه صدّر بالإعراب الصحيح ثم أثبت تكلف الزمخشري في إعرابه ، وما ذهب إليه أبو حيان قد خلا من التكلف فقد رأي أنها استئنافية أي استئنافا بيانيًا كأن سائلاً سأل : لماذا يحلفون بقولهم لو استطعنا لخرجنا معكم فكان الجواب : (يهلكون أنفسهم) . وهذا أولى من تحميل ألفاظ القرءان ما لا تحتمل .

المثال الثاني :ذكر أبو حيان ما ارتضاه في قوله (مثنى وثلاث ورباع) فيقول: معدولة عن اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولا يراد بالمعدول عنه التوكيد إنما يراد بذلك تكرار العدد إلى غاية المعدود كقوله نفروا بعيرًا بعيرًا وفصلت الحساب بابًا بابًا ويتحتم منع صرفها لهذا العدل والوصف على هذا مذهب سيبويه (٢) والخليل (٣) وأبي عمرو ، وأجاز الفراء(٤) أن تصرف ومنع الصرف عنده أولى وعلة المنع عنده العدل والتعريف بنية الألف واللام وامتنع عنده إضافتها لأنها في نية الألف

١- أبو حيان ، البحر المحيط ٤٧/٥، ٤٨

٢- سيبويه : عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر سيبويه وتعني بالفارسية (رائحة التفاح) نحوي أديب أخذهما عن الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب توفي وله نيف وأربعون سنة عام ١٨٠هـ انظر : وفيات الأعيان ٤٨٧/١ ومعجم المؤلفين ١٠/٨ وأنباه الرواة ٣٤٦/٢

٣- الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ولد سنة ١٠٠هـ من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض وناهيك عن رجل هو أستاذ سيبويه له كتاب العين ومعاني الحروف والعروض والنقط والشكل توفي بالبصرة ١٧٠هـ
انظر : الأعلام ٢/ ٣١٤ وأنباه الرواة ٣٤١/١

٤- الفراء محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء البغدادي الحنبلي (أبو يعلى) محدث أصولي فقيه مفسر ولد ٣٨٠هـ تولى القضاء وله تصانيف : أحكام القرءان والتبصرة في فروع الفقه الحنبلي توفي ببغداد ٤٥٨هـ انظر: تاريخ بغداد ٢٥٦/٢ ومعجم المؤلفين٢٥٤/٩

واللام ، وامتنع ظهور الألف واللام لأنها في نية الإضافة وقد ذكرنا الرد عليه في كتاب التكميل من تأليفنا

ثم ذكر رأي الزمخشري ورد عليه :
قال الزمخشري: في قوله (مثنى وثلاث ورباع) إنما منعت الصرف لما فيها من العدلين : عدلها عن صيغتها ، وعدلها عن تكريرها. وهي نكرات تعرفن بلام التعريف يقال : فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع ا.هـ كلامه.

عقب عليه أبو حيان قائلاً : وما ذهب إليه (من امتناع الصرف لما فيها من العدلين: عدلها عن صيغتها، وعدلها عن تكرّرها) لا أعلم أحداً ذهب إلى ذلك، بل المذاهب في علة منع الصرف المنقولة أربعة:
أحدها: ما نقلناه (١) عن سيبويه.
والثاني: ما نقلناه (٢) عن الفراء.
والثالث: ما نقل عن الزجاج (٣) وهو لأنها معدولة عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، وأنه عدل عن التأنيث.
والرابع: ما نقله أبو الحسن(٤) عن بعض النحويين أن العلة المانعة من الصرف هي تكرار العدل فيه، لأنه عدل عن لفظ اثنين وعدل عن معناه. وذلك أنه لا يستعمل في موضع تستعمل فيه الأعداد غير المعدولة تقول: جاءني اثنان وثلاثة، ولا يجوز: جاءني مثنى وثلاث حتى يتقدّم قبله جمع، لأن هذا الباب جعل بياناً لترتيب الفعل. فإذا قال: جاءني القوم مثنى، أفاد

١- أنها ممنوعة للعدل والوصف .
٢-أنها ممنوعة للعدل والتعريف بالألف واللام .
٣- إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج كان من أهل الفضل والدين وجميل المذهب والاعتقاد ومن تصانيفه معاني القرآن في التفسير وخلق الإنسان وتفسير جامع المنطق توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة في جمادى الآخرة انظر طبقات المفسرين للأدنوي١ /٥٢

٤- أبو الحسن بن عصفور : علي بن مؤمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي ولد ٥٩٧ هـ حامل لواء العربية بالأندلس في عصره من كتبه : الممتع ، والمقنع ، وشرح المتنبي وتوفي بتونس ٦٦٩هـ انظر الأعلام ٢٧/٥

أن ترتيب مجيئهم وقع اثنين اثنين.فأما الأعداد غير المعدولة فإنما الغرض منها الإخبار عن مقدار المعدودين غيره.

فقد بان بما ذكرنا اختلافهما في المعنى، فلذلك جاز أن تقوم العلة مقام العلتين لإيجابهما حكمين مختلفين انتهى ما قرر به هذا المذهب. وقد ردّ الناس على الزجاج قوله: أنه عدل عن التأنيث بما يوقف عليه في كتب النحو، والزمخشري لم يسلك شيئاً من هذه العلل المنقولة، فإن كان تقدّمه سلف ممن قال ذلك فيكون قد تبعه، وإلا فيكون مما انفرد بمقالته.

ـ وأما قوله: (يعرفن بلام التعريف ، يقال: فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع) فهو معترض من وجهين:

أحدهما: زعمه أنها تعرف بلام التعريف، وهذا لم يذهب إليه أحد، بل لم يستعمل في لسان العرب إلا نكرات.

والثاني: أنه مثّل بها، وقد وليت العوامل في قوله: فلان ينكح المثنى، ولا يلي العوامل، إنما يتقدّمها ما يلي العوامل، ولا تقع إلا خبراً كما جاء:(صلا ة الليل مثنى مثنى) (١) . أو حالاً نحو(ما طاب لكم من النساء مثنى) (٢) أو صفه نحو:(أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع) (٣)

وقوله:ذئاب يبغى الناس مثنى وموحدا(٤)

وقد تجيء مضافة قليلاً نحو، قول الآخر:

بمثنى الزقاق * المترعات وبالجزر (٥)

وقد ذكر بعضهم أنها تلي العوامل على قلة، وقد يستدل له بقول الشاعر:

ضربت خماس ضربة عبشمي أدار سداس أن لا يستقيما (٦)

١- الحديث أخرجه البخاري ك: الوتر ب : ما جاء في الوتر عن ابن عمر رقم٩٤٦ ج١ص٣٣٧ ومسلم ب : صلاة الليل مثنى مثنى رقم٧٤٩ ج١ص٥١٦ وابن خزيمة ١٣٩/٢ وابن حبان ٣٥٣/٦

٢- سورة النساء آية ٣

٣- سورة فاطر آية ١

٤- قائله ساعدة بن جؤية والشطر الأول : ولكنما أهلي بواد أنيسه *
انظر ديوان الهذليين ٢٧٧/١ وشرح المفصل ٥٧/٨ والشاهد فيه : أن ذئاب مبتدأ ومثنى خبره

٥- قائله امرؤ القيس انظر ديوانه البيت ١٣

٦- البيت لم أقف على قائله ، انظر : أبو حيان ، البحر المحيط ١٦٠/٣

انتهى كلام أبي حيان (١)

المثال الثالث : يبين أبو حيان موضع جملة (أن تبتغوا) من الإعراب في قوله تعالى:(وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا) (٢) فيقول وموضع (أن تبتغوا) نصب على أنه بدل اشتمال من (ما وراء ذلكم) ويشمل الابتغاء بالمال النكاح والشراء(٣) وقيل : الابتغاء بالمال هو على وجه النكاح . ثم يذكر إعراب الزمخشري والرد عليه فيقول:

وقال الزمخشري : (أن تبتغوا) مفعول له، بمعنى : بين لكم ما يحل مما يحرم ، إرادة أن يكون ابتغاؤكم بأموالكم التي جعل الله لكم قياما في حال كونكم (محصنين غير مسافحين) لئلا تُضيّعوا أموالكم وتُفقروا أنفسكم فيما لا يحل لكم ، فتخسروا دنياكم ودينكم ، ولا مفسدة أعظم مما يجمع بين الخسرانين انتهى كلامه.

وقد عقب أبو حيان بقوله : وانظر إلى جعجعة هذه الألفاظ وكثرتها، وتحميل لفظ القرآن ما لا يدل عليه ، وتفسير الواضح الجلي باللفظ المعقد، ودس مذهب الاعتزال في غضون هذه الألفاظ الطويلة دساً خفيا إذ فسر قوله: (وأحل لكم) بمعنى بين لكم ما يحل. وجعل قوله: (أن تبتغوا) على حذف مضافين: أي إرادة أن يكون ابتغاؤكم، أي: إرادة كون ابتغائكم بأموالكم.وفسر الأموال بعد بالمهور، وما يخرج في المناكح، فتضمن تفسيره: أنه تعالى بين لكم ما يحل لإرادته كون ابتغائكم بالمهور،فاختصت إرادته بالحلال الذي هو النكاح دون السفاح.

ـ ما زال الحديث لأبي حيان ـ قال : وظاهر الآية غير هذا الذي فهمه الزمخشري. إذ الظاهر أنه تعالى أحلّ لنا ابتغاء ما سوى المحرمات السابق ذكرها بأموالنا حالة الإحصان ، لا حالة السفاح. وعلى هذا الظاهر لا يجوز أن يعرب : (أن تبتغوا) مفعولاً له ، كما ذهب إليه الزمخشري ، لأنه فات شرط من شروط المفعول له، وهو اتحاد الفاعل في العامل والمفعول له. لأن الفاعل بقوله: وأحل ، هو الله تعالى. والفاعل في: أن

١- أبو حيان ، البحر المحيط ١٥٩/٣

٢- سورة النساء آية ٢٤

٣- أي : الشراء لملك اليمين .

تبتغوا ، هو ضمير المخاطبين، فقد اختلفا. ولما أحس الزمخشري – إن كان أحس بهذا – جعل أن تبتغوا على حذف (إرادة) حتى يتحد الفاعل في قوله : وأحل ، وفي المفعول له ، ولم يجعل (أن تبتغوا) مفعولاً له إلا على حذف مضاف وإقامته مقامه ، وهذا كله خروج عن الظاهر لغير داع إلى ذلك . ومفعول تبتغوا محذوف اختصاراً، إذ هو ضمير يعود على ما من قوله: (ما وراء ذلكم) وتقديره: أن تبتغوه.

وقال الزمخشري: (فإن قلت): أين مفعول تبتغوا ؟ (قلت): يجوز أن يكون مقدراً وهو النساء، وأجود أن لا يقدر. وكأنه قيل: أن تخرجوا أموالكم انتهى كلامه.

ثم عقب أبو حيان علي الجزء الأخير بقوله (فأما تقديره: إذا كان مقدراً بالنساء) فإنه لما جعله مفعولاً له غاير بين متعلق المفعول له وبين متعلق المعلول .

وأما قوله: (وأجود أن لا يُقدّر ، وكأنه قيل: أن تخرجوا أموالكم) فهو مخالف للظاهر، لأن مدلول تبتغوا ليس مدلول تخرجوا، ولأن تعدى تبتغوا إلى الأموال بالباء ليس على طريق المفعول به الصريح، كما هو في تخرجوا، وهذا كله تكلف ينبغي أن ينزه كتاب الله عنه. (١)

١- أبو حيان ، البحر المحيط ٣/ ٢٢٤، ٢٢٥

المطلب الرابع : موقف أبي حيان من رأي الزمخشري في بعض القراءات المتواترة

لمّا كان المعوّل عليه في القرءان الكريم هو التلقي والمشافهة والأخذ إماما عن إمام إلى النبي ﷺ حتى تلقت الأمة بالقبول القراءات السبع المتواترة المنسوبة للأئمة المعروفين (١) والثلاث المشهورة (٢) وأنها موافقة لوجه من وجوه النحو ، وموافقة للرسم ، وصح إسنادها ، وتناقلتها الأجيال جيلا عن جيل ، كل تلك العوامل جعلت الغيورين من حماة الدين يقفون أمام من يُضعّف قراءة من القراءات من أجل مخالفة لقاعدة نحوية عند البصريين مع أنها في نفس الوقت تتفق مع قواعد الكوفيين النحوية مثلا .

– ومن هؤلاء الغيورون الإمام أبو حيان وهو صاحب باع في القراءات وله ألفية ١٠٤٤ بيتًا في القراءات السبع سماها(عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي) وغير ذلك من كتب القراءات .

فدافع عن قراءة حمزة بجر (والأرحام) والتي ردها الزمخشري لأنها تخالف قواعد البصريين النحوية ، وعرض آراء اثنين خالفوا معه ابن عطية والمازني (أبو عمرو بن العلاء) ثم عقبها بالرد عليهم.

فقال أبو حيان في قوله تعالى (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) قرأ حمزة (٣) بخفض الميم والباقون بنصبها (٤)

١- وهم (نافع توفي بالمدينة ١٦٩هـ ، وعاصم الكوفي توفي بالكوفة ١٢٨هـ ، وحمزة توفي ١٥٦هـ ، وابن عامر الشامي توفي بدمشق ١١٨هـ ، وابن كثير المكي توفي بمكة ١٢٠هـ ، وأبو عمرو بن العلاء البصري توفي بالكوفة ١٥٤ هـ ، والكسائي الكوفي توفي ١٨٩هـ) انظر البدور الزاهرة ص٦

٢- وهم (أبو جعفر المدني توفي بالمدينة ١٢٨ويعقوب البصري توفي بالبصرة ٢٠٥ وخلف البغدادي توفي ٢٢٩هـ) . البدور الزاهرة ص٦

٣- حمزة الكوفي: هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرَضي التيمي ويكنى أبا عمارة أحد قراء القراءات السبع ، وكان ثقة في الحديث وتوفي بحلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ست وخمسين ومائة
انظر :التاريخ الكبير ٣/٥٢ والثقات ٦/ ٢٢٨ والجرح والتعديل ٣/٢٠٩

٤- الشيخ/ عبد الفتاح القاضي ، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص٧٣

ـ بـدا بذكر القراءات الواردة في الأرحام ووجّه ذلك ثم قال: " وأما الجر فظاهره أنه معطوف على المضمر المجرور من غير إعادة الجار ،وعلى هـذا فسـرها الحسن (١) والنخعي (٢) ومجاهد(٣). ويؤيده قراءة عبد الله (٤): وبالأرحـام. وكـانوا يتناشـدون بذكر الله والرحم. قال الزمخشري: (وليس بسديد يعني: الجر عطفاً على الضمير. قال: لأن الضمير المتصل متصل كاسمه، والجار والمجرور كشيء واحد، فكانا في قولك: مررت به وزيـد، وهـذا غلامه وزيد شديدي الاتصال، فلما اشتد الاتصال لتكرره اشـتبه العطف على بعض الكلمة فلم يجر، ووجب تكرير العامل كقولك: مـررت بـه وبـزيد، وهذا غلامه وغلام زيد. ألا ترى إلى صحة رأيتك وزيداً،ومررت بزيد وعمرو لما لم يقو الاتصال لأنه لم يتكرر؟ وقد تمحل لصحة هذه القراءة بأنها على تقدير تكرير الجار،ونظير هذا قول الشاعر:

فما بك والأيام من عجب (٥) .

وقال ابن عطية: وهذه القراءة عند رؤساء نحويين البصرة لا تجوز، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطف ظاهر على مضمر مخفوض. قال الزجاج عن

١- الحسن بن يسار البصري ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر وكان فصيحًا ورعًا زاهدًا فقيهًا ثقة روى عن الصحابة توفي ١١٠هـ انظر طبقات ابن سعد١٦/٦ والسير ٥٦٣/٤

٢- إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي أبو عمران الكوفي فقيه مفسر محدث قال عنه الأعمش : صيرفي الحديث توفي٩٦هـ سير أعلام النبلاء ٥٢٠/٤ والطبقات ٢٧٠/٦

٣- مجاهد بن جبر المكي المقرئ المفسر أخرج له أصحاب الكتب الستة ولد ٢١هـ وتوفي ١٠٤هـ وهو ساجد انظر تهذيب التهذيب ٤٢/١٠ والسير ٤٤٩/٤ .

٤- الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل يصل نسبه إلى مضر أسلم قديمًا وأول من جهر بالقرءان في مكة وله مكانته في التفسير توفي بالمدينة سنة ٣٢هـ ودفن بالبقيع انظر سير أعلام النبلاء ٤١٦/١ وحلية الأولياء ١٢٤/١

٥- هذا عجز بيت وأوله: فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا * واختلف في قائله فقيل: الأعشى وقيل : عمرو بن معد يكرب وقيل : خفاف بن ندبة وقيل : عباس بن مرداس والمعنى : اليوم دنوت مسرعًا في هجونا بعد بطئك فاذهب فإنها طريقة اللئام فلا عجب من ذلك ، والشاهد : عطف الأيام على الضمير المجرور بدون إعادة حرف الجر انظر : مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ٤٥٢/١

المازنـي (١): لأن المعطـوف والمعطـوف عليه شريكان،يحل كل واحد مـنهما محـل صـاحبه. فكما لا يجوز مررت بزيد وَكَ، فكذلك لا يجوز مررت بك وزيد. وأما سيبويه فهي عنده قبيحة لا تجوز إلا في الشعر كما قال:

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب (٢)

وكما قال:

تعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكف غوط تعانف (٣)

واستسهلها بعض النحويين انتهى كلام ابن عطية.

وتعلـيل المازنـي معترض بأنه يجوز أن تقول: رأيتك وزيداً، ولا يجوز رأيـت زيدًا وكَ، فكان القياس رأيتك وزيداً، أن لا يجوز. وقال ابن عطية أيضا: المضمر المخفوض لا ينفصل، فهو كحرف من الكلمة، ولا يعطف علـى حرف.ويرد عندي هذه القراءة من المعنى وجهان: أحدهما: أن ذكر الأرحـام مما تساءل به لا معنى نه في الحض على تقوى الله تعالى، ولا فائدة فيه أكثر من الإخبار بأن الأرحام يتساءل بها، وهذا تفريق في معنى الكلام. وغض من فصاحته، وإنما الفصاحة في أن تكون في ذكر الأرحام فـائدة مسـتقلة. والوجه الثاني: أن في ذكرها على ذلك تقدير التساؤل بها والقسم بحرمتها، والحديث الصحيح يرد ذلك في قوله ﷺ: (من كان حالفاً فـليحلف بالله أو ليصمت)(٤) انتهى كلامه. وذهبت طائفة إلى أنّ الواو في والأرحـام واو القسم لا واو العطف، والمتلقى به القسم هي الجملة بعده. ولله تعـالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته على ما جاء في غير ما آية في كـتاب الله تعالى،وذهبوا إلى تخريج ذلك فراراً من العطف على الضمير المجرور بغير إعادة الجار، وذهابا إلى أن في القسم بها تنبيها على صلتها

١- المازني :هو أبو عمرو بن العلاء المازني المقرئ النحوي البصري الإمام مقرئ أهل البصرة اسمه زبان على الأصح وقيل العريان وقيل يحيى وقيل محبوب وقيل جنيد وقيل عينة وقيل عثمان أحد القراء السبعة ولد ٨٦ وقيل ٧٠ وتوفي ١٥٤هـ انظر: معرفة القراء الكبار ج: ١ ص: ١٠٠

٢- انظر الصفحة السابقة

٣- قائله مسكين الدارمي انظر شرح المفصل ٧٩/٣

٤- الحديث أخرجه البخاري ٩٥١/٢ ، ١٣٩٤/٣ ، ٢٤٤٩/٦ ومسلم ١٢٦٧/٣ وابن حبان ٢٠٤/١٠

وتعظـيما لشـأنها، وأنها من الله تعالى بمكان. قال ابن عطية: وهذا قول يأباه نظم الكلام وسرده انتهى.

تعقيب أبي حيان عليهم :

وما ذهب إليه أهل البصرة وتبعهم فيه الزمخشري وابن عطية: من امتناع العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، ومن اعتلالهم لذلك غير صـحيح، بـل الصـحيح مذهب الكوفيين في ذلك وأنه يجوز. وقد أطلنا الاحـتجاج في ذلك عند قوله تعالى:(وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد ٱلْحَرَامِ)(١) وذكرنا ثـبوت ذلك في لسان العرب نثرها ونظمها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا(٢).

١- سورة البقرة آية ٢١٧

٢- مـا ذكره أبو حيان في هذه الآية (وكفر به) أي وبالمسجد الحرام نقول: العطف المضمر المجرور فيه مذاهب ،أحدها: أنه لا يجوز إلاّ بإعادة الجار إلاّ في الضرورة، فإنـه يجوز بغير إعادة الجار فيها، وهذا مذهب جمهور البصريين. الثاني: أنه يجوز ذلـك فـي الكـلام، وهو مذهب الكوفيين، ويونس، وأبي الحسن، والأستاذ أبي علي الشـلوبين. الثالث: أنه يجوز ذلك في الكلام إن أكد الضمير، وإلاّ لم يجز في الكلام، نحو: مررت بك نفسك وزيد، وهذا مذهب الجرمي.

والـذي نختاره أن يجوز ذلك في الكلام مطلقا،لأن السماع يعضده، والقياس يقويه. أما السـماع فمـا روي مـن قول العرب: ما فيها غيره وفرسه، بجر الفرس عطفا على الضـمير فـي غـيره ، والـتقدير: مـا فيها غيره وغير فرسه ، والقراءة الثانية في السـبعة:(تسـاءلون بـه والأرحـام) أي: وبالأرحام وتأويلها على غير العطف على الضـمير، ممـا يخـرج الكلام عن الفصاحة، فلا يلتفت إلى التأويل. قرأها كذلك ابن عـباس، والحسن، ومجاهد،وقتادة، والنخعي، ويحي بن وثاب، والأعمش، وأبو رزين، وحمـزة. ومن ادعى اللحن فيها أو الغلط على حمزة فقد كذب، وقد ورد من ذلك في أشعار العرب كثير يخرج عن أن يجعل ذلك ضرورة، فمنه قول الشاعر:

نعلق في مثل السواري سيوفنا * فما بينها والأرض غوط نفانف

وقال آخر: هلا سألت بذي الجماجم عنهم * وأبي نعيم ذي اللواء المحرق

وقال آخر: بنا أبدًا لا غيرنا يدرك المنى * وتكشف غماء الخطوب الفوادح

وقال آخر: إذا أوقدوا نارًا لحرب عدوهم * فقد خاب من يصلى بها وسعيرها

وقال آخر: لو كان لي وزهير ثالث وردت * من الحمام عدانا شر مورود

وقال رجل من طيء: إذا بنا بل أنيسان اتقت فئة * ظلت مؤمنة ممن تعاديها

وقال العباس بن مرادس: أكر على الكتيبة لا أبالي * أحتفي كان فيها أم سواها

وأنشد سيبويه : فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا * فاذهب فما بك والأيام من عجب

فأنـت تـرى هذا السماع وكثرته، وتصرف العرب في حرف العطف، فتارة عطفت بـالواو، وتـارة بـأو، وتارة ببل، وتارة بأم، وتارة بلا، وكل هذا التصرف يدل على

وأما قول ابن عطية: ويرد عندي هذه القراءة من المعنى وجهان، فجسارة قبيحة منه لا تليق بحاله ولا بطهارة لسانه. إذ عمد إلى قراءة متواترة عن رسـول الله ﷺ قرأ بها سلف الأمة، واتصلت بأكابر قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن من في رسول الله ﷺ بغير واسطة عثمان (١) وعلي(٢) وابن مسعود وزيد بن ثابت (٣).

الجـواز، وإن كـان الأكثر أن يعاد الجار كقوله تعالى:(وعليها وعلى الفلك تحملون) [المؤمـنون ٢٢] (فقـال لهـا ولـلأرض ائتـيا طوعًـا أوكـرها) [فصـلت١١] (قـل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) [غافر ٨٠] وقد خرج على العطف بغير إعادة الجـار قولـه:(ومن لستم له برازقين) [الحجر ٢٠] عطفا على قوله: (لكم فيها معايش) أي: ولمـن. وقولـه:(ومـا يتلى عليكم) [النساء ١٢٧] عطفا على الضمير في قوله: (فيهـنّ) أي: وفيما يتلى عليكم. وأما القياس فهو أنه كما يجوز أن يبدل منه ويؤكد من غير إعادة من غير إعادة جار، كذلك يجوز أن يعطف عليه من غير إعادة جار، ومن احـتج للمـنع بـأن الضمير كالتنوين ، فكان ينبغي أن لا يجوز العطف عليه إلاّ مع الإعـادة لأن التنويـن لا يعطف عليه بوجه ، وإذا تقرّر أن العطف بغير إعادة الجار ثابت من كلام العرب في نثرها ونظمها ، كأن يخرج عطف : والمسجد الحرام ، على الضـمير فـي:بـه ، أرجح ، بل هو متعين ، لأن وصف الكلام، وفصاحة التركيب تقتضي ذلك. انظر البحر المحيط ١٥٦/٢

١- عـثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية القرشي أسلم قديمًا استشهد يوم التروية سنة ٣٥هـ انظر تهذيب الكمال ٤٤٥/١٩ والطبقات ٥٣/٣

٢- علـي بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي ابن عم الرسول الكريم ﷺ أول من أسلم من الصبيان مناقبه أكثر من أن تحصى جمع بين حسن القضاء والفتوى والتفسير توفي سنة ٤٠هـ شهيدًا انظر : تهذيب الكمال ٢٠/ ٤٧٢ والطبقات٣٣٧/٢

٣- زيـد بـن ثابـت بن الضحاك بن زيد بن لوزان بن عمرو الأنصاري أحد كتّاب الوحـي لرسـول الله ﷺ ، مدحه النبي ﷺ بقوله (أفرضكم زيد) واعتمد عليه أبو بكر وعـثمان ﷺ في جمع القرءان توفي ٤٥هـ وقيل ٤٨هـ انظر تهذيب الكمال ٢٤/١٠ والطبقات ٢/ ٣٥٨

وأقرأ الصحابة أبيّ بن كعب (١) عمدَ إلى ردّها بشيء خطر له في ذهنه، وجسارته هذه لا تليق إلا بالمعتزلة كالزمخشري ، فإنه كثيراً ما يطعن في نقل القراء وقراءتهم، وحمزة رضي الله عنه: أخذ القرآن عن سليمان بن مهران الأعمش(٢)، وحمدان بن أعين (٣)ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى (٤) وجعفر بن محمد الصادق (٥) ، ولم يقرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثر.وكان حمزة صالحاً ورعاً ثقة في الحديث، وهو من الطبقة الثالثة، ولد سنة ثمانين وأحكم القراءة وله خمس عشرة سنة،وأمَّ الناسَ سنة مائة، وعرض عليه القرآن من نظرائه جماعة منهم: سفيان الثوري(٦) والحسن بن صالح (٧). ومن تلاميذه جماعة منهم إمام الكوفة

١- أبي بن كعب بن قيس الأنصاري يكنى أبا المنذر من شهداء ليلة العقبة شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ومدحه ﷺ بقوله (أقرؤكم أبي)وهو أحد كتاب الوحي توفي ٣٠هـ انظر : سير أعلام النبلاء ٣٨٩/١ وأسد الغابة ٦١/١

٢- سليمان بن مهران الأعمش شيخ الإسلام وشيخ المقرئين والمحدثين كوفي ولد ٦١ هـ قال فيه مجاهد : لو كانت بي قوة لاختلفت إلى هذا يعني الأعمش توفي ١٤٧هـ انظر سير أعلام النبلاء ٢٢٦/٦ والطبقات ٣٤٢/٦

٣- الصواب حمران بالراء بن أعين وليس في الأعلام (حمدان بن أعين) كوفي فيه تشيع لكن له سند في القراءة إلى النبي ﷺ قرأ على عبيد بن نضلة عن علقمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ انظر : تهذيب الكمال ٣٠٦/٧

٤- محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري مفتي الكوفة وقاضيها وكان نظيراً لأبي حنيفة في الفقه توفي ١٤٨هـ انظر: سير أعلام النبلاء ٣١٠/٦ والطبقات ٦/ ٣٥٨

٥- جعفر بن محمد بن الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بجعفر الصادق ولد ٨٠هـ ورأى بعض الصحابة ، سأله أبو حنيفة أربعين مسألة ما أخرم في مسألة منها توفي ١٤٨هـ انظر: سير أعلام النبلاء ٢٥٥/٦ وفيات الأعيان ٣٢٧/١

٦- سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب الثوري الكوفي شيخ الإسلام إمام حافظ ولد ٩٧ هـ ومات ١٢٦هـ انظر : سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧والطبقات ٣٧١/٦

٧- الحسن بن صالح بن حيي الهمداني الكوفي أحد الأعلام فقيه عابد ولد ١٠٠هـ وتوفي ١٦٩ هـ انظر : سير أعلام النبلاء ٣٦١/٧

في القراءة والعربية أبو الحسن الثوري، والحسن بن صالح. ومن تلاميذه جماعة منهم إمام الكوفة في القراءة والعربية أبو الحسن الكسائي.

وقال الثوري وأبو حنيفة (١) ويحيى بن آدم (٢) : غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض. وإنما ذكرت هذا وأطلت فيه لئلا يطلع غمر على كلام الزمخشري وابن عطية في هذه القراءة فيسيء ظناً بها وبقارئها، فيقارب أن يقع في الكفر بالطعن في ذلك. ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ولا غيرهم ممن خالفهم، فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون(٣) وكم حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون(٤)، وإنما يعرف ذلك من له استبحار في علم العربية ، لا أصحاب الكنانيس المشتغلون بضروب من العلوم الآخذون عن الصحف دون الشيوخ انتهى كلام أبي حيان (٥)

أقول : وإن تعجب فعجب قولهم (لا تجوز عند رؤساء البصريين) ومن يسمع مثل هذه الحُجة يقول إن رؤساء البصريين أقدم من نزول القرءان ،

١- أبو حنيفة بن النعمان بن ثابت الكوفي التيمي فقيه مجتهد وإمام الحنفية أراده المنصور على قضاء بغداد فأبى ، فحلف عليه ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل وقال أمير المؤمنين أقدر على الكفارة فأمر بحبسه توفي رحمه ببغداد ١٥٠هـ ودفن بمقابر الخيزران انظر : وفيات الأعيان ٢١٥/٢ والأعلام ٤/٩

٢- يحيى بن آدم بن سليمان الأموي من ثقات أهل الحديث فقيه واسع العلم توفي ٢٠٣هـ انظر الأعلام ١٦٠/٩

٣- البصريون : البصرة أول مدينة عنيت بالنحو واللغة وتدوينها بدأت بأبي الأسود الدؤلي ت٦٧هـ ومن تلاميذه نصر بن عاصم الليثي ت ٨٩هـ وأعظم ما كتب في المذهب (الكتاب) لسيبويه بارشاد من الخليل بن أحمد الفراهيدي انظر : المدارس النحوية للدكتور/ شوقي ضيف ص١١ ط : دار المعارف بمصر

٤- الكوفيون : مدرسة نحوية وضع رسومها ووطّأ منهجها الكسائي فكان إمامهم الذي إليه ينتهون بعلمهم وعليه يعولون في روايتهم ومن علمائها الفراء وثعلب والرواسي انظر : المدارس النحوية للدكتور / شوقي ضيف ص ١٥١

٥- أبو حيان ، البحر المحيط ١٦٥/٣ وما بعدها

ولكـنّ حجتهم داحضة فما وضع البصريون قواعد النحو إلا بعد قرن من نزول القرءان ، وكان نقاش القراء في إعراب القرءان سببًا رئيسًا لوضع تلـك القواعد ويقول صاحب كتاب المدارس النحوية " كان ما بينها ــ أي المدرسة البصرية ــ من خلافات في الإعراب هو الذي أضرم الرغبة في نفـوس قـراء البصرة كي يضعوا النحو وقواعده وأصوله ثم قال : وكان القرءان الكريم وقراءاته مددًا لا ينضب لقواعدهم أ.هـ (١)

ــ فأيهما أسبق حتى يكون حجة على الآخر ؟

فإذا كان الجواب الذي لا يختلف عليه اثنان أن القرءان أسبق ، إذن وجب علـيهم التزام ما جاء به القرءان ، وليس على القرءان أن يتبع منهجهم ، وبهـذه الـثقة من أبي حيان يجب أن يتصف كل عالم يقف على ثغرة من ثغـور الإسـلام يسـدها كي لا تكون مدخلا للنيل من كتاب الله تعالى ، وليعض كل متعلم بالنواجذ على هذا الذي ذكره أبو حيان رحمه الله تعالى

ــ وفـي قولـه تعـالى (وكذلـك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم)(٢) عرض فيها أبو حيان جميع القراءات الواردة فيها فقال : قـرأ الجمهـور: (زين) مبنيا للفاعل ونصب (قتل) مضافا إلى (أولادهم) ورفع (شُرَكَاؤُهُمْ) فاعلا بزين وإعراب هذه القراءة واضح .

وقـرأت فرقة منهم السلمي(٣) وغيره (زُيّنَ) مبنيا للمفعول (قتل) مرفوعا مضـافا إلـى (أوْلادِهِـمْ شُـرَكَاؤُهُمْ) مـرفوعا على إضمار فعل أيزينه شـركاؤهم هكـذا خـرّجه سيبويه . ثم ذكر القراءة التي اعترض عليها الزمخشري ، فقال أبو حيان :

وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه نصب (أولادَهم) وجر (شركائهم) فصلَ بين المصـدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول وهي مسألة مختلف في جوازها، فجمهـور البصريين يمنعونها متقدموهم ومتأخروهم ولا يجيزون ذلك إلا فـي ضرورة الشعر، وبعض النحويين أجازها وهو الصحيح لوجودها في

---

١ – شوقي ضيف ، المدارس النحوية ص١٨، ١٩ ط : دار المعارف بمصر

٢ – سورة الأنعام آية ١٣٧

٣ – عبد الله بن حبيب بن ربيعة أبو عبد الرحمن ولد في حياة النبي وكان لأبيه صحبة وقرأ القرءان وجوده وبرع في حفظه وعرضه على عثمان وعلي وابن مسعود وهو مقرئ الكوفة انظر : الطبقات ١٧٢/٦ ومعرفة القراء الكبار ٥٢/١

هـذه القـراءة المتواترة المتسوية إلى العربي الصريح المحض الذي عاصر الآخـذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب، ولوجودهـا أيضـا فـي لسان العرب في عدة أبيات قد ذكرناها في كتاب منهج السالك من تأليفنا ولا التفات إلى قول ابن عطية وهذه قراءة ضعيفة فـي استعمال العرب، وذلك أنه أضاف الفعل إلى الفاعل وهو الشركاء ثم فصـل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وروؤساء العربية لا يجيزون الفصل بالظروف في مثل هذا إلا في الشعر كقوله

كما خط الكتاب بكف يوما * يهودي يقارب أو يزيل(١)

فكيف بالمفعول في أفصح كلام ، ولكن وجهها على ضعفها أنها وردت شاذة في بيت أنشده أبو الحسن الأخفش (٢)

فزججتها بمزجة * زج القلوص أبي مزاد(٣)

وفي بيت الطرماح(٤) وهو قوله

يطفن بحوزي المراتع لم يرَع * بواديه من قرع القسيّ الكنائن (٥)

انتهى كلام ابن عطية ، ولا التفات أيضا إلى قول الزمخشري: إن الفصل بينهما يعني بين المضاف والمضاف إليه ، فشيء لو كان في مكان

---

١ – قائله أبو حية النميري والشاهد فيه : أنه فصل بالظرف ((يوما)) بين المتضايفين ((بكف يهودي)) انظر الكتاب لسيبويه ٧٩/١ والأشموني ٢٧٨/٢

٢ – أبو الحسن الأخفش : سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البصري صحب الخليل بالأخفش الأوسط أخذ العربية عن سيبويه وعن كتبه :: معاني القرءان ، والاشتقاق ، والقوافي ، وزاد في العروض بحر الخبب فأصبحت البحور ستة عشر توفي ٢١٥هـ انظر :: الأعلام ١١٠-٣/٢ وإنباه الرواة ٣٣٦/٢

٣ – الزج :: اللغة ، والمزجة :: الرمح القصير فهو آلة الزج والقلوص :: الناقة الشابة وهو مفعول فاصل بين المضاف والمضاف إليه والمعنى :: فطعنت الناقة برمح قصير كخطو أبي مزادة القلوص في السير انظر شواهد التوضيح على شواهد الكشاف ٣٦٧/٢

٤ – الطرماح بن حكيم بن عمرو بن حمير من طيء ، ويكنى أبا فراس كان خليعا من فحول الشعراء الإسلاميين عمّا بالتشيع وانتقل إلى الكوفة واعتقد مذهب الشراة الأزارقة من الخوارج انظر الشعر والشعراء ٥٨٥/٢ وجمهرة أشعار العرب ٩٣٧/٢

٥ – ديوان الطرماح ص١٦٥ وخزانة الأدب ٤١٨/٢ تحقيق الأستاذ // عبد السلام هارون ط :: الخانجي ــ مصر

الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً ، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟ والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر (الأولاد) والشركاء لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب؛ انتهى ما قاله.

فعقب عليه أبو حيان بقوله : وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت ، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم ولا التفات أيضاً لقول أبي علي الفارسي(١) "هذا قبيح قليل في الاستعمال ولو عَدَلَ عنها ــ يعني ابن عامر ــ كان أولى لأنهم لم يجيزوا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الكلام مع اتساعهم في الظرف وإنما أجازوه في الشعر" انتهى. وإذا كانوا قد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالجملة في قول بعض العرب هو غلام إن شاء الله أخيك فالفصل بالمفرد أسهل، وقد جاء الفصل في اسم الفاعل في الاختيار. قرأ بعض السلف: (مخلف وعدَه رسلِه) (٢) بنصب وعده وخفض رسله وقد استعمل أبو الطيب (٣) الفصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول اتباعاً لما ورد عن العرب فقال

بعثت إليه من لساني حديقة * سقاها الحيا سقي الرياض السحائب(٤)

انتهى كلام أبي حيان (٥)

١- الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي من أئمة النحو ببغداد وحسبك بأن تلميذه ابن جني له الإيضاح في النحو والحجة في توجيه القراءات السبع توفي سنة ٣٧٧ هـ انظر تاريخ بغداد ٧/ ٢٧٥ وأنباه الرواة ٢٧٣/١

٢- سورة إبراهيم ٤٧

٣- أبو الطيب المتنبي : أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي ولد بكندة ٣٠٣هـ ونشأ بالشام وتنبأ في بادية السماوة وتبعه كثيرون ثم سجن حتى تاب ورجع عن دعواه توفي ٣٥٤هـ انظر : الأعلام ١١٥/١

٤- قائله أبو الطيب المتنبي انظر ديوانه ٢٧٠/١

٥- أبو حيان ، البحر المحيط ٢٣٢/٤

أقول : إن الزمخشري غالي في اعتبار الأقيسة النحوية مطردة فظنها قطعية ، وعلى فرض أنها قطعية فإن قراءة ابن عامر لم تخالف ما ورد في لسان العرب ، ومع ذلك يتطاول الزمخشري ويصف ما ورد على لسانهم بالسماجة والرد ، فما بالنا لو لم يرد .

ثم في قول الزمخشري (والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف) يشير إلى ابن عامر وقوله بعد ذلك (لوجد مندوحة عن هذا الارتكاب) .

هذه شناعة في التعبير من الزمخشري تؤذن بأن ابن عامر قرأها من رأيه ، وحاشاه وهو أحد القراء السبعة المتواترة أن يدخل في القرءان ما ليس منه ، فما وصلت إليه إلا بطريق متواتر جيلاً عن جيل ، ويقرؤون بها خلفاً عن سلف ، إلى أن انتهت إلى ابن عامر فقرأها كما سمعها ، هذا معتقدنا الذي ندين الله عليه في القراءات السبع المتواترة ولا نبالي بعد هذا المعتقد بردّ الزمخشري أو غيره .

وأختم بأجمل ما أنت قارئ في خزانة الأدب نقلاً عن الدر المصون قال : ــ " قراءة ابن عامر متواترة صحيحة ، وقد تجرأ كثير من الناس على قارئها بما لا ينبغي ، وهو أعلى القراء السبعة سنداً ، وأقدمهم هجرة ، وإنما ذكرنا هذا تنبيهاً على خطأ من رد قراءته ونسبه إلى لحن أو اتباع مرسوم " (١).

١- البغدادي ، خزانة الأدب ٤١٨/٤ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط: الخانجي بمصر

المطلب الخامس : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري الاعتقادية

كان أبو حيان حكيمًا في نقده ، لقد أجاد التعامل مع الزمخشري بكل طريقة يحتاجها المرء في تعامله مع البشر ، فسوف تجده مؤيدًا ، وتجده يؤذيه القول لشناعته فيترفع عن ذكره ، وتجده مناظرًا ، ومع ذلك فلم يحتد أبو حيان في لهجته بالنقد اللاذع إلا حينما يجد التكلف في تأويل الآية الكريمة حتى يخرجها الزمخشري بتأويله المذموم لكي ينتصر لقاعدة من قواعد الاعتزال .

ويمكننا تقسيم موقف أبي حيان إلى خمسة طرق :

الأول : الموافقة على رأيه ومدحه .

الثاني : الترفع عن ذكر قوله لشناعته .

الثالث : التنبيه عليه بدسيسة الاعتزال .

الرابع : تعقيب أبي حيان بأدب المناظرة على الزمخشري عند تعسفه .

الخامس : التعقيب عليه بالقول اللاذع .

أما الأول : الموافقة على رأيه

فقد رأينا أبا حيان قد مدحه في بعض المواضع قائلاً : كلامه في هذا الموضع قريب من أهل السنة ومنها في قوله تعالى (لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) (١)

قال الزمخشري: التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ لما رأوا من الآيات الباهرة لأنّ العرب لما فيهم من الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد يأتلف منهم قلبان ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله ﷺ واتحدوا وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم وأحدث بينهم من التحابّ والتوادّ وأماط عنهم من التباغض وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله ولا

1- سورة الأنفال آية ٦٣

يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب فهو يقلبها كما يشاء ويصنع فيها ما أراد انتهى

وقد عقب أبو حيان على ذلك قائلا : وكلامه آخرا قريب من كلام أهل السنة ؛ لأنهم قالوا في هذه الآية دليل على أنّ العقائد والإرادات والكراهات من خلق الله ؛ لأنّ ما حصل من الإلف هو بسبب الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ فلو كان الإيمان فعلاً للعبد لكانت المحبّة المترتبة عليه فعلاً للعبد وذلك خلاف صريح الآية .انتهى كلام أبي حيان(١)

ومعلوم أن المعتزلة لهم موقف خاص بالنسبة لأفعال العباد فهم يرون أن العبد خالق لأفعاله مستقل عن إرادة الله تعالى وليس لله صلة بأفعاله من قريب أو بعيد ، وليس له فيها تأثير في قليل أو كثير قال في الملل والنحل : " واتفقوا ــ أي المعتزلة ــ على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله ثوابًا وعقابًا في الآخرة ، والرب تعالى منزه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية ؛ لأنه لو خلق الظلم كان ظالمًا ، كما لو خلق العدل كان عادلاً" (٢)

وردّ أهل السنة عليهم بأن الله خلق الخير والشر وخلق الإيمان والكفر لكنه سبحانه أمر بالإيمان والخير ورضيهما من عباده ونهى عن الشر والكفر ولم يرضهما من عباده (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) (٣)

فإذا ما قارنت هذا المبدأ عند المعتزلة مع قول الزمخشري علمت أنه موافق لما عليه أهل السنة .وهذا من إنصاف أبي حيان للزمخشري .

ـ ومن موافقة أبي حيان للزمخشري في رأيه أنه ينتقى منه حكمًا عقديًا ولم يعلق عليه لرضاه به في قوله تعالى على لسان هدهد سليمان عليه السلام (أحطت بما لم تحط به) (٤) قال الزمخشري : قالوا وفيه دليل على بطلان

١- أبو حيان ، البحر المحيط ٥١٠/٣

٢- الشهرستاني ، الملل والنحل ٤٥/١

٣- سورة الزمر آية ٧

٤- سورة النمل آية٢٢

قول الرافضة "إن الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون أعلم زمانه " (١) فهـذا دليل قوي لدحض مزاعم الرافضة من كون الإمام أحاط بكل شيء علمًـا وأطلعهـم الله على أسرار الكون منذ خلق الدنيا وحتى قيام الساعة وقد أحاطوا برسالات الأنبياء السابقين جميعًا (٢)

الثاني : الترفع عن ذكر قوله لشناعته

نجـد أن أبا حيان يكتفي بالإلماح عن سوء أدب الزمخشري في تفسيره ، ويـترك قولَ الزمخشري دون عرضه ، ترفعًا عن ذكره ونأخذ على ذلك مثالين .

١ــ في قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) (٣)

بعد أن ذكر أبو حيان أقوال المفسرين اللائقة بالنبي الكريم ﷺ(٤)

١- أبو حيان ، البحر المحيط ٦٣/٧

٢ – د/ محمود مزروعة ، الفرق الإسلامية ص٢٢٣ ط : الرضا للنشر والتوزيع

٣- سورة التوبة آية ٤٣

٤- فـي تفسيرها قال ابن عطية: هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق. واستأذنوا دون اعتذار قال بعضهم : ائذن لي ولا تفتني. وقال بعضهم: ائذن لنا في الإقامة، فأذن لهم استبقاءً منه عليهم، وأخذا بالأسهل من الأمور، وتوكلا على الله. وقال نفطويه: ذهب نـاس إلـى أنّ النبي معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك، بل كان له أن يفعل وأن لا يفعـل حـتى يـنزل عليه الوحي كما قال:(لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة) [أخرجه أبو داود باب : صفة حجة النبي رقم ١٩٠٥ ج٢ ص ١٨٤ وأحمد رقم ١٣٨٤٠ ج٣ص٢٦٦ لأنه كان له أن يفعل وأن لا يفعل.وقد قال الله تعالى(ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء) [سورة الأحزاب آية٥٠] لأنه كان لـه أن يفعـل مـا يشاء مما لم ينزل عليه فيه وحي. واستأذنه المخلفون في التخلف واعـتذروا، فاختار أيسر الأمرين تكرماً وتفضلاً منه ، فأبان الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لأقاموا للنفاق الذي في قلوبهم، وأنهم كاذبون في إظهار الطاعة والمشاورة،فعفا الله عـنك عنده افتتاح كلام أعلمه الله به، أنه لا حرج عليه فيما فعله من الإذن، وليس هو عفواً عن ذنب، إنما هو أنه تعالى أعلمه أنه لا يلزمه ترك الإذن لهم كما قال ﷺ:(عفا الله لكـم عن صدقة الخيل والرقيق) [أخرجه أبو داود ك: الزكاة ب: زكاة السائمة رقم ١٥٧٤ وأحمد في مسنده ٩٢/١] وما وجبتا قط ، ومعناه: ترك أن يلزمكم ذلك انتهى. ووافقـه عليه قوم فقالوا: ذكر العفو هنا لم يكن عن تقدم ذنب، وإنما هو استفتاح كلام جـرت عـادة العـرب أن تخاطب بمثله لمن تعظمه وترفع من قدره، يقصدون بذلك

قـال أبو حيان: وكلام الزمخشري في تفسير قوله: (عفا الله عنك لم أذنت لهم) مما يجب إطراحه (١) فضلاً عن أن يُتكر فيردّ عليه.انتهى كلام أبي حيان(٢)

٢ــ وفـي سورة التحريم في قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لـك) (٣) يقول أبو حيان وللزمخشري هنا كلام (٤) أضربت عنه صفحا، كمـا أضربت عن كلامه في قوله:(عفا الله عنك) وكلامه هذا ونحوه يعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا .. انتهى كلام أبي حيان (٥).

أقـول : وقد عرضته بالحاشية مع الرد عليه (٦) من باب عرفت الشر لا للشـر ولكـن لتوقيه ، ومن لا يعرف الشر ويحذره يقع فيه ، ولئلا يطلع عليه سفهاء الناس فيكررونه ويجادلون به ..

الدعـاء له فيقولون: أصلح الله الأمير كان كذا وكذا، فعلى هذا صيغته صيغة الخبر، ومعناه الدعاء انتهى. انظر البحر المحيط ٤٨/٥ بتصرف

١- قال الزمخشري في هذه الآية (عفا الله عنك) كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لهـا ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت) الكشاف٢/٢٦٥ وكان ينبغي على الزمخشري أن يتنـبه إلى أن الله عز وجل لم يبدأ نبيه ﷺ بالعتاب(لم أذنت) وإنما بدأه بالعفو (عفا الله عـنك) لمكانـتـه عنده ، مع تنزيه نبينا محمد ﷺ عن الجناية وعن الخطأ وسوء الفعل الـذي عبر به ، فخطاب الله لنبيه ﷺ خطاب رقة ورأفة ، وتفسير الزمخشري له فيه غلظة وقسوة ،مع تنزيه نبينا محمد عن الجناية وعن الخطأ وسوء الفعل الذي عبر به.

٢- أبو حيان ، البحر المحيط ٤٩/٥

٣- سورة التحريم آية ١

٤- من تعبيره غير اللائق بمقام النبوة أن يقول الزمخشري في تفسيره (لم تحرم) كان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ؛ لأن الله عز وجل إنما أحل ما أحل لحكمـة ومصلحة عرفها في إحلاله فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة) الكشاف ٥٥١/٤ ، ففـي تفسـيره إشـارة صـريحة بأن النبي ﷺ قلب المصلحة إلى مفسدة ، وحاشاه ﷺ من أن يكون كذلك .

٥- أبو حيان ، البحر المحيط ٢٨٤/٨

٦- وقـد رد عليـه الشـيخ أحمـد بـن المنير السكندري في الانتصاف قائلاً : نقل الزمخشـري فـي سـبب نزولها أنه عليه الصلاة السلام خلا بمارية في يوم عائشة

الثالث : التنبيه عليه بالاعتزال

في قوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١) عرض أبو حيان رأي جميع الفرق في مرتكب الكبيرة محرراً محل النزاع ببيان ما اتفق عليه أصحاب الفرق ثم بيان ما اختلفوا فيه فبدأ بما اتفقوا عليه قائلاً :

ـ وأجمع المسلمون على تخليد من مات كافراً في النار، وعلى تخليد من مات مؤمناً لم يذنب قط في الجنة. فأما تائب مات على توبته فالجمهور: على أنه لاحق بالمؤمن الذي لم يذنب، وطريقة بعض المتكلمين أنه في المشيئة.

وعلمت بذلك حفصة فقال لها : (اكتمي عليّ وقد حرّمت مارية على نفسي) قال أحمد: ما أطلقه الزمخشري في حق النبي ﷺ تقوّل وافتراء ، والنبي ﷺ منه براء ، وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله عز وجل وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الإيمان ، وان صدر سُلبَ المؤمنُ حكمَ الإيمان واسمه ، الثاني : الامتناع مما أحله الله عز وجل ، وحمل التحريم بمجرده صحيح لقوله (وحرمنا عليه المراضع من قبل) القصص١٢ أي منعنا لا غير وقد يكون مؤكدًا باليمين مع اعتقاد حله ، هذا مباح صرف وحلال محض ، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال ، فإذا علمت بون ما بين القسمين فعلى القسم الثاني تحمل الآية ، والتفسير الصحيح يعضده ؛ فإن النبي ﷺ حلف بالله لا أقرب مارية ، ولما نزلت الآية كفّرَ عن يمينه ، ويدل عليه (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وقال مالك في المدونة عن زيد بن أسلم : إنما كفّر النبي ﷺ في تحريمه أم ولده ، لأنه حلف أن لا يقربها ، ومثله عن الشعبي ، وهذا المقدار مباح ليس في ارتكابه جناح ، وإنما قيل له : لمَ تحرم ما أحل الله لك ؟ رفقًا به وشفقة عليه ، وتنويهًا لقدره ولمنصبه ﷺ : أن يراعي مرضات أزواجه بما يشق عليه ، جريًا على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيه ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ، والزمخشري قطعًا لم يحمل التحريم على هذا الوجه، لأنه جعله زلة ، فيلزمه أن يحمله على المحمل الأول ، ومعاذ الله وحاش لله ، إن آحاد المؤمنين يحاشى عن أن يعتقد تحريم ما أحل الله له ، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ﷺ عما يرتفع عنه منصب عامة الأمة ؟ما هذه من الزمخشري إلا جرأة على الله ورسوله ، وإطلاق القول من غير تحرير ، وإبراز الرأي الفاسد بلا تخمير ، نعوذ بالله من ذلك انظر : الانتصاف ٤ /٥٤٩، ٥٥٠.

١- سورة النساء آية ٤٨

ثم ذكر أبو حيان ما اختلفوا فيه فقال : وأما مذنب مات قبل توبته فالخوارج تقول: هو مخلد في النار سواء كان صاحب كبيرة أم صاحب صغيرة . والمرجئة تقول : هو في الجنة بإيمانه ولا تضره سيئاته . والمعتزلة تقول: إن كان صاحب كبيرة خلد في النار. وأما أهل السنة فيقولون: هو في المشيئة، فإن شاء غفر له وأدخله الجنة من أول وهلة ، وإن شاء عذبه وأخرجه من النار وأدخله الجنة بعد مخلداً فيها.

وسبب هذا الاختلاف : تعارض عمومات آيات الوعيد وآيات الوعد ، فالخوارج جعلوا آيات الوعيد عامة في العصاة كافرين ومؤمنين غير تائبين. وآيات الوعد مخصوصة في المؤمن الذي لم يذنب قط ، أو المذنب التائب. والمرجئة جعلوا آيات الوعيد مخصوصة في الكفار، وآيات الوعد مخصوصة في المؤمن تقيهم وعاصيهم. وأهل السنة خصصوا آيات الوعيد بالكفر وبمن سبق في علم أنه يعذبه من المؤمنين العصاة ، وخصصوا آيات الوعد بالمؤمن الذي لم يذنب ، وبالتائب ، وبمن سبق في علمه العفو عنه من المؤمنين العصاة . والمعتزلة خصصوا آيات الوعد بالمؤمن الذي لم يذنب ، وبالتائب. وآيات الوعيد بالكافر وذي الكبيرة الذي لم يتب . وهذه الآية هي الحاكمة بالنص في موضع النزاع ، وهي جلت الشك ، وردّت على هذه الطوائف الثلاث . فقوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به) والمعنى: أنّ من مات مشركاً لا يغفر له ، هو أصل مجمع عليه من الطوائف الأربع. وقوله: (ويغفر ما دون ذلك) ردّ على الخوارج وعلى المعتزلة ؛ لأن ما دون ذلك عام تدخل فيه الكبائر والصغائر. وقوله (لمن يشاء) ردّ على المرجئة ، إذ مدلوله أنّ غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم على ما شاء تعالى ، بخلاف ما زعموه بأن كل مؤمن مغفور له . وأدلة هؤلاء الطوائف مذكورة في علم أصول الدين. وقد رامت المعتزلة والمرجئة ردّ هذه الآية إلى مقالاتهما بتأويلات لا تصح ، وهي منافية لما دلت عليه الآية .

قال الزمخشري: فإن قلت (قد ثبت أن الله عزّ وعلا يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة ، فما وجه قوله: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؟ (قلت): الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله : (لمن يشاء) كأنه قيل: إنّ الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون

الشـرك. على أن المراد بالأول مَن لم يتب ، وبالثاني مَن تاب . ونظيره قولك: إنّ الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يستأهله انتهى كلامه.

فردّ عليه أبو حيان بقوله : تأول الآية على مذهبه وقوله : (قد ثبت أن الله عـز وعـلا يغفر الشرك لمن تاب عنه، هذا مجمع عليه. وقوله: وإنه لا يغفـر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة). فنقول له: وأين ثبت هذا ؟ وإنمـا يستدلون بعمومات تحتمل التخصيص، كاستدلالهم بقوله (ومن يقتل مؤمـنًا متعمدًا)....الآية (١) وقد خصصها ابن عباس بالمستحل ذلك وهو كافـر. وقولـه: قال: فجزاؤه إن جازاه الله. وقال: الخلود يراد به المكث الطويـل لا الديمومة لا إلى نهاية ، وكلام العرب شاهد بذلك . وقوله: (إن الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله: لمن يشاء) إن عـنى أنّ الجار يتعلق بالفعلين فلا يصح ذلك. وإن عنى أن يقيد الأول بالمشـيئة كمـا قـيد الثاني فهو تأويل والذي يفهم من كلامه أنّ الضمير الفـاعل في قوله: (يشاء) عائد على من ، لا على الله ؛ لأن المعنى عنده: أنّ الله لا يغفـر الشـرك لمن يشاء أن لا يغفر له بكونه مات على الشرك غـير تائـب منه، ويغفر ما دون الشرك من الكبائر لمن يشاء أن يغفر له بكونـه تاب منها. والذي يدل عليه ظاهر الكلام أنه لا قيد في الفعل الأول بالمشـيئة ، وإن كانـت جميع الكائنات متوقفاً وجودها على مشيئته على مذهبـنا. وأنّ الفـاعل فـي يشاء هو عائد على الله تعالى ، لا على من ، والمعـنى: ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء أن يغفر له . وفي قوله تعالى: (لمـن يشاء) ترجئة عظيمة بكون من مات على ذنب غير الشرك لانقطع علـيه بـالعذاب ، وإن مات مصرّا.قال عبد الله بن عمر(٢) كنا على عهد رسـول الله ﷺ إذا مـات الرجل على كبيرة شهدنا له أنه من أهل النار، حـتى نزلـت هذه الآية فأمسكنا عن الشهادات. (٣) وفي حديث عبادة بن

١- سورة النساء ٩٣

٢ -عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي أسلم وهو صغير وهاجر مع أبيه ، استصغر يوم أحد ثم شهد الخندق وما بعدها أعطي قوة في الجهاد والعبادة توفي بعد الحج سنة ٧٣هـ انظر الإصابة ١٨٢/٤ وتهذيب التهذيب٢٨٧/٥

٣ – روى نحوه الطبري ، جامع البيان رقم ٩٧٣٢ج٨ص٤٥٠ تحقيق الشيخ شاكر .

الصـامت (١) فـي آخره (ومن أصاب من ذلك ــ أي من المعاصي التي تقـدم ذكرها ــ فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه) (٢) ويروى عن علي وغيره من الصحابة: ما في القرآن آية أحب إلينا من هذه الآية (٣) انتهى كلام أبي حيان (٤).

وأقـول : إن الـذي جعل الزمخشري يلوي عنق الآية فيجعل فاعل قوله (لمـن يشاء) يعود للعبد هو مبدؤهم في مسألة (الصلاح والأصلح) فثواب الطـائع وعقـاب العاصي واجب عندهم على الله تعالى ، وهو في الحقيقة تفضـل مـن الله عز وجل وتكرم كما قال النبي ﷺ (لن يدخل الجنة أحدا عملـه قـالوا ولا أنـت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل) (٥)

ولـذا رد الإمـام أبو حامد الغزالي (٦) عليهم فقال : (بل له سبحانه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، خلافا للمعتزلة الذين حجروا ــ ضيقوا ــ على الله تعالى في أفعاله وأوجبوا عليه رعاية الأصلح ، ويمضي منتصرًا لمذهـب أهـل السنة فيقول : إن لله إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الـثواب بل إن شاء أثابهم وإن شاء عاقبهم وإن شاء أعدمهم ولم يحشرهم ولا يبالـي لو غفر لجميع الكافرين وعاقب جميع المؤمنين ، ولا يستحيل (أي عقـلا) ذلك في نفسه ، ولا يناقض صفة من صفات الإلهية وهذا لأن

ثم علق الطبري في ختام التفسير بمذهب أهل السنة قائلا : أبانت هذه الآية أن صاحب الكبيرة في مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركًا .

١- عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر الأنصاري أحد النقباء ليلة العقبة شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وسكن بيت المقدس ومات بالرملة سنة ٣٤هـ وهو ابن ثنتين وسبعين سنة انظر سير أعلام النبلاء ٥/٢

٢- رواه البخاري ك: الإيمان ب: علامة الإيمان حب الأنصار ١٥/١ رقم ١٨

٣- الترمذي ، السنن كتاب التفسير باب سورة النساء ٢٤٧/٥ رقم ٣٠٣٧

٤- أبو حيان ، البحر المحيط ٣/ ٢٧٩، ٢٨٠

٥- البخاري٢١٤٧/٥ واللفظ لمسلم ٤/ ٢١٧١

٦- أبو حامد : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي حجة الإسلام فقيه أصولي متكلم ولد٤٥٠ هـ بخراسان تتلمذ على إمام الحرمين الجويني من تصانيفه الإحياء ، والمستصفى ، وتهلفت الفلاسفة توفي ٥٠٥هـ انظر وفيات الأعيان ٥٨٦/١ ومعجم المؤلفين ٢٦٦/١١

التكليف تصرف في عبيده ومماليكه ، أما الثواب والعقاب ففعل آخر على سبيل الابتداء . (١)

ـ ومن أشد الأمور التي تتألم لها أن يترك الإنسان لعقله العنان ظنًا منه أنه ينشد الحرية في الفكر ، فيقع في نفس المحظور الذي منه فر ، فإذا به يكون عبدًا لعقله ، فترى الزمخشري في تفسير الآية الآتية ينسب ما هو إلى الله تعالى ينسبه للشيطان ففي تفسير قوله تعالى (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) (٢) بدأ أبو حيان بمذهب أهل السنة قائلاً : ونسبة المد إلى الله حقيقة إذ هو موجد الأشياء والمنفرد باختراعها ، والمعنى أن الله يطول لهم في الطغيان.

ثم ذكر رأي المعتزلة قائلاً : ذهب الزمخشري إلى تأويل المد المنسوب إلى الله تعالى بأنه منع الألطاف وخذلانهم بسبب كفرهم وإصرارهم ، بقيت قلوبهم تتزايد الظلمة فيها تزايد النور في قلوب المؤمنين ، فسمى ذلك التزايد مداً وأسند إلى الله لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم ، أو بأن المد هو على معنى القسر والإلجاء . قال : أو على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده .

وعقب أبو حيان بقوله : وإنما ذهب إلى التأويل في المد لأن مد الله لهم في الطغيان قبيح، والله منزه عن فعل القبيح. والتأويل الأول الذي ذكره الزمخشري: قول الكعبي (٣) وأبي مسلم (٤) وقال الجبائي (٥) هو المد في العمر، وعندنا نحن أن الله خالق الخير والشر، وهو الهادي والمضل.

١- الغزالي ، الاقتصاد في الاعتقاد ص٨٣، ٨٤

٢- سورة البقرة آية ١٥

٣- عبد الله بن أحمد البلخي الحنفي أبو القاسم المعروف بالكعبي توفي ٣١٩هـ له تفسير في اثنى عشر مجلدًا مفقود انظر كشف الظنون ٢٣٤/١

٤- محمد بن بحر (أبو مسلم) الأصفهاني له تفسير اسمه جامع التأويل لمحكم التنزيل توفي ٣٢٢هـ انظر الفهرست ص٥٠ وبغية الوعاة ص٢٣

٥- محمد بن عبد الوهاب بن سلام (أبو علي الجبائي) أحد شيوخ المعتزلة ت٣٠٣هـ ألف في التفسير كتابًا قال عنه أبو الحسن الأشعري : ألفه على لغة أهل قريته (جبى) وما في كتابه حرفًا عن أحد من المفسرين وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه أ.هـ تبيين كذب المفتري ص١٣٩ وانظر طبقات المفسرين للسيوطي ٢٣

وقد تقدم الكلام في نحو من هذا عند قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم)

(١) ومد الله في طغيانهم : التمكين من العصيان ، قاله ابن مسعود أو الإملاء ، قاله ابن عباس أو الزيادة من الطغيان ، قاله مجاهد ، أو الإمهال ، قاله الزجاج وابن كيسان (٢) أو تكثير الأموال ، والأولاد ، وتطيب الحياة ، أو تطويل الأعمار ، ومعافاة الأبدان ، وصرف الرزايا ، وتكثير الأرزاق . انتهى كلام أبي حيان (٣)

ـ وتعجبت من مسلك الزمخشري حتى يفر من معارضة الآية لمبدأ من مبادئ المعتزلة (وهو وجوب الصلاح والأصلح على الله وأنه تعالى لم يخلق الشر) يذكر تفسيرًا تنفر منه الأسماع والأبصار بأن يسند فعل الشيطان إلى الله وذلك في قوله (أو على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده) .

وهل القرءان الكريم يعجز أو يعيبه إسناد ما للشيطان إلى الشيطان حتى يسنده إلى الله ؟

الرابع : تعقيب أبي حيان بأدب المناظرة على الزمخشري عند تعسفه .

ففي قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول) (٤) يقول أبو حيان : الظاهر أنه من الأمر الذي هو ضد النهي ، واختلف في متعلقه فذهب الأكثرون منهم ابن عباس(٥) وابن جبير(٦) إلى أن التقدير: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا.

١- سورة البقرة آية ٧

٢- محمد بن أحمد بن كيسان أبو الحسن كان قيما بمذهب البصريين والكوفيين أخذ عنه المبرد وثعلب توفي٢٩٩ انظر: أنباه الرواة ٥٧/٣ وبغية الوعاة ١٨/١

٣- أبو حيان ، البحر المحيط ٢٠٣/١

٤- سورة الإسراء آية ١٦

٥- عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ حنكه النبي ﷺ بريقه ولازم النبي ﷺ من صغره ودعا له الرسول ﷺ بالفقه في الدين وفهم التأويل فكان حبر الأمة وتوفي رسول الله ﷺ وله من العمر خمس عشرة سنة توفي بالطائف سنة ٦٨هـ على الراجح انظر : سير أعلام النبلاء ٣٣/٣ وأسد الغابة ٣/ ٢٩٠

٦- سعيد بن جبير الوالبي ، مولى كوفي فقيه أحد الأعلام ، ثقة إمام حجة ، قال ميمون بن مهران : مات سعيد وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه ، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ فما أمهل بعده انظر : الطبقات ٢٥٦/٦ والسير ٣٢١/٤

وذهب الزمخشري إلى أن التقدير أمرناهم بالفسق ففسقوا ، وردّ على من قال أمرناهم بالطاعة فقال: أي أمرناهم بالفسق ففعلوا ، والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا وهذا لا يكون ، فبقي أن يكون مجازاً ، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر ، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية ، وآثروا الفسوق فلما فسقوا حق عليهم القول ، وهي كلمة العذاب فدمرهم. فإن قلت: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت: لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه ؟ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه وهو كلام مستفيض. يقال: أمرته فقام وأمرته فقرأ ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب ولا يلزم هذا قولهم : أمرته فعصاني أو فلم يمتثل أمري لأن ذلك مناف للأمر ، مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به ، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي ، لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به وكأنه يقول: كان مني أمر فلم يكن منه طاعة كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع ويأمر وينهى غير قاصد إلى مفعول. فإن قلت: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقسط والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير (ففسقوا)؟ قلت: لا يصح ذلك لأن قوله (ففسقوا) يدافعه فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدّعي إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه . ونظير(أمر) (شاء) في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه تقول: لو شاء لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك ، تريد لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت وقلت: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الإساءة فاترك

الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم يكن على سداد انتهى.

ردّ أبو حيان عليه قال :

أما (ما ارتكبه من المجاز وهو أن (أمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) صببنا عليهم النعمة صبا) فبعيد جداً. وأما قوله (وأقدرهم على الخير والشر إلى آخره) فمذهب الاعتزال، وقوله (لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز) تعليل لا يصح فيما نحن بسبيله، بل ثم ما يدل على حذفه. وقوله (فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه إلى قوله علم الغيب) فنقول: حذف الشيء تارة يكون لدلالة موافقه عليه، ومنه ما مثل به في قوله أمرته فقام وأمرته فقرأ، وتارة يكون لدلالة خلافه أو ضده أو نقيضه فمن ذلك قوله تعالى:(وله ما سكن في الليل والنهار) ([1]) قالوا: تقديره ما سكن وما تحرك.وقوله تعالى: (سرابيل تقيكم الحر) ([2]) قالوا: الحر والبرد.

وقول الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضًا * أريد الخير أيهما يليني

أألخير الذي أنا أبتغيه * أم الشر الذي هو يبتغيني ([3])

تقديره: أريد الخير وأجتنب الشر، وتقول: أمرته فلم يحسن فليس المعنى أمرته بعدم الإحسان فلم يحسن ، بل المعنى أمرته بالإحسان فلم يحسن ، وهذه الآية من هذا القبيل يستدل على حذف النقيض بإثبات نقيضه ، ودلالة النقيض على النقيض كدلالة النظير على النظير، وكذلك أمرته فأساء إليّ ليس المعنى أمرته بالإساءة فأساء إليّ، إنما يفهم منه أمرته بالإحسان فأساء إليّ. وقوله : (ولا يلزم هذا قولهم أمرته فعصاني). نقول: بل يلزم، وقوله: (لأن ذلك مناف أي لأن العصيان مناف وهو كلام صحيح. وقوله: (فكان المأمور به غير مدلول عليه ولا منوي) هذا لا يسلم بل هو مدلول عليه ومنوي لا دلالة الموافق بل دلالة المناقض كما

---

١ - سورة الأنعام ١٣

٢- سورة النحل ٨١

٣- قائل البيتين المتقب العبدي والشاهد فيهما أن العرب تجيز إضمار أحد الشيئين إذا كان في الكلام دليل عليه والتقدير :أريد الخير وأجتنب الشر انظر : ديوان المتقب ص ٢١٢ ومعاني القرءان للفراء ٢٣١/١ وخزانة الأدب ٢٣٧/٦

بيـــنا. وأما قوله: لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأموراً به هـــذا أيضاً لا يسلم. وقوله (في جواب السؤال لأن قوله {ففسقوا } يدافعه، فكـــأنك أظهرت شيئاً وأنت تدّعي إضمار خلافه). قلنا: نعم يدعي إضمار خلافـــه ودل علـــى ذلـــك نقيضه. وقوله: (ونظير أمر شاء في أن مفعوله اســـتفاض فيه الحذف) . قلت: ليس نظيره لأن مفعول أمر لم يستفض فيه الحـــذف لدلالة ما بعده عليه، بل لا يكاد يستعمل مثل شاء محذوفاً مفعوله لدلالـــة مـــا بعده عليه ، وأكثر استعماله مثبت المفعول لانتفاء الدلالة على حذفـــه. قال تعالى:(قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) (١) (أمر أن لا تعبدوا إلا اياه) (٢) (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) (٣) (قل أمر ربي بالقسط) (٤) (أنسجد لمـــا تأمـــرنا) (٥) أي بـــه (ولا يأمـــركم أن تتخذوا الملائكة) (٦). وقال الشاعر:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به(٧)

وقال أبو عبد الله الرازي (٨): ولقائل أن يقول كما أن قوله أمرته فعصاني يـــدل علـــى أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضـــد المـــأمور به، فكونه فسقا ينافي كونه مأموراً به، أن كونه معصية ينافي كونها مأموراً بها، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس

١- سورة الأعراف آية ٢٨
٢- سورة يوسف ٤٠
٣- سورة الطور ٣٢
٤- سورة الأعراف آية ٢٩
٥- سورة الفرقان آية ٦٠
٦- سورة آل عمران ٨٠
٧- صدر بيت وعجزه (فقد تركتك ذا مال وذا نشب) نسبه سيبويه لعمرو بن معد يكرب انظر الكتاب١/٣٧والخزانة١/٣٤٢
٨- الإمام الرازي: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي الطبرستاني الشافعي أصولي مفسر متكلم الملقب بفخر الدين ولد ٥٤٤هـ من تصانيفه التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، والمحصول ، والطالب العالية ، وشرح المفصل للزمخشري ، توفي ٦٠٦ هـ انظر : وفيات الأعيان ٢/٢٦٥ والدرر الكامنة ١/٣٠٤

بفسـق. هـذا الكلام في غاية الظهور فلا أدري لم أصرّ صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت أن الحق ما ذكروه (١)

الخامس : التعقيب عليه بالقول اللاذع

نجد أن أبا حيان يغضب للحق عندما يلوي الزمخشري عنق الآية من أجل قـاعدة مـن قواعـد الاعتزال وهي أن يثبت أن الحسن والقبح عقليين لا شـرعيين فسـوف تعجـب من قوله (إن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع)

ففي قول الله تعالى :(وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) (٢)

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟

قلت : كأنهم اعتقدوا إذا بيتوا صالحًا ، وبيتوا أهله ، فجمعوا بين البياتين ثم قالوا (ما شهدنا مهلك أهله) فذكروا أحدهما كانوا صادقين ، فإنهم فعلوا البياتين جميعًا لا أحدهما ، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ، ولا يخطر ببالهم ، ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يروا لأنفسهم أن يكونوا كاذبين حتى سووا الصدق في أنفسهم حيلة يتفصون بها عن الكذب . انتهى

عقب أبو حيان قائلاً : والعجب من هذا الرجل كيف يتخيل هذه الحيل في جعل إخبارهم (وإنا لصادقون) إخبارًا بالصدق ، وهو يعلم أنهم كذبوا صالحًا وعقروا الناقة التي كانت من أعظم الآيات ، وأقدموا على قتل نبي وأهله ، ولا يجوّز عليهم الكذب ، وهو يتلوا في كتاب الله كذبهم على أنبيائهم ، ونص الله ذلك (٣) وكذبهم على من لا تخفى عليه خافية (يوم تبلى السرائر) (٤) وهو قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف

١- أبو حيان ، البحر المحيط ٦/١٥ وما بعدها
٢- سورة النمل ٤٨، ٤٩
٣- نحو قوله تعالى (كذبت ثمود بطغواها) ١١و(فكذبوه فعقروها) ١٤سورة الشمس
٤- سورة الطارق آية ٩

كذبوا على أنفسهم) (١) وإنما هذا منه تحريف لكلام الله تعالى حتى ينصر مذهبه في قوله : (إن الكذب قبيح عند الكفرة ، ويتحيل لهم هذا التحيل حتى يجعلهم صادقين في إخبارهم)

قال أبو حيان : وهذا الرجل وإن كان أوتي من علم القرءان أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة ، وكنت قريبًا من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيدًا في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله ، واستطردت إلى مدح الزمخشري ، فذكرت شيئًا من محاسنه ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه ، رأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا ، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح فقلت بعد ما مدحته به :

ولكنـّه فيه مجـال لناقـد * وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلا * ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الأئـمة ضلـة * ولا سيما إن أولجـوه المضايقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة * بتكثيـر ألفـاظ تسمى الشقاشقا
يُقـوّل فيها الله ما ليس قائـلا * وكان محبـًا في الخطابة وامقا
ويخـطئ في تركيبـه لكلامـه * فليس ما قـد ركبـوه موافقا
وينسب أبـداء المعاني لنفسـه * ليوهم أغمارًا وإن كان سارقـا
ويخطئ في فهم القرءان لأنه * يجوّز إعرابًا أبى أن يطابقا
وكم بين من يؤتى البيان سليقة * وآخر عانـاه فما هـو لاحقـًا
ويحتـال للألفاظ حتى يديرها * لمذهـب سوء فيه أصبح مارقا
فيا خسره شيخًا تخرق صيته * مغارب تخريق الصبا ومشارقا
لئن لم تداركه من الله رحمة * لسوف يرى للكافرين مرافقا(٢)

وندعو الله عز وجل أن تدركه رحمته فيكون قد تاب من زلاته ، ببركة القرءان الذي خط آياته بيديه ، لا سيما وهو الداعي في مقدمة كشافه بقوله " أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سببًا ينجيني ، ونورًا لي على الصراط يسعى بين يدي ويميني " (٣)

١- سورة الأنعام آية ٢٣
٢- أبو حيان ، البحر المحيط ٨٢/٧
٣- الزمخشري ، الكشاف ١٩/١

الخاتمة

وبعد .. فإن الزمخشري جبل شامخ في علمه ، وبحر خضم متلاطم أمواجه ، وفي رأيي أن أبا حيان أنصفه ولم يتحامل عليه ، غير أن إطلاق العنان للعقل عند الزمخشري أخرج تفسيره من حد الممدوح في كثير من مواقفه الجليلة إلى مواقف جعلت تفسيره في عداد التفسير المذموم لاسيما التمسك بمبادئ المعتزلة التي منها .

ـ الاعتماد على سلطان العقل المطلق قال الزمخشري :" امش في دينك تحت راية السلطان يعني العقل ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان فما الأسد المحتجب في عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه ، وما العنز الجرباء تحت الشمأل البليل (١) أذل من المقلد عند صاحب الدليل ، وجامع الروايات الكثيرة ولا حجة عنده مقوية أوقر ظهره بالحطب وأغفل زنده ، إن كان للضلال أم فالتقليد أمه ، قلد الله حبلاً من مسد من يقصده ويؤمه " (٢)

فقد أداه إطلاق عنان العقل إلى إنكار ما صح من الأحاديث التي تناقض مذهبهم وأسسهم ، وانظر إلى جعل العقل مقياسًا لقبول الحقائق الدينية فقد رفض ما ورد من سبب نزول المعوذتين في قصة سحر لبيد بن الأعصم للنبي ﷺ لأن ذلك يخالف مبدأهم في أن السحر ليس له حقيقة ، فرد عليه أبو حيان بقوله :"وسبب نزول هاتين المعوذتين ينفي ما تأوله الزمخشري من قوله : ويجوز أن يراد به النساء ذات الكيادات من قوله : (إن كيدكن عظيم) (٣) تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد ، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهنّ لهم، وعرضهنّ محاسنهن، كأنهن يسحرنهم بذلك انتهى كلام أبي حيان" (٤)

١- الجملة من شعر أوس بن حجر (وهبّت الشمأل البليل*وإذ بات كميع الفتاة ملتفعًا)
اللسان ٣١٣/٨ والشمأل : ريح تهب من قبل الشمال عن يسار القبلة اللسان (ش م ل)
٣٦٦/١١ والبليل : ريح باردة مع ندى ، ولا تجمع اللسان (ب ل ل) ١١/ ٦٤
٢- مقامات الزمخشري ص ٣٨
٣- سورة يوسف ٢٨
٤- أبو حيان ، البحر المحيط ٥٣٣/٨

وهذا تكلف من الزمخشري ينزه عنه ظاهر القرءان ولا داعي لصرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة داعية لذلك .
كما أداه ذلك أيضًا إلى ليّ معنى الحديث بما يتفق مع عقيدته فيلجأ إلى جعل الحقائق تخييلات ، ونوع من التمثيل والتصوير ، فمثلا : يقول الزمخشري في قول النبي : (ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها) (١) يقول : وما يروي في الحديث فالله أعلم بصحته ، فإن صح فمعناه: أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلاّ مريم وابنها ، فإنهما كانا معصومين . وكذلك كل من كان صفتهما لقوله : (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) (٢) واستهلاله صارخا من مسه ، تخييل وتصوير لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول: هذا ممن أغويه ، وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخا وعياطا مما يبلونا به من نخسه. انتهى كلامه. فرد عليه أبو حيان : وهو جار على طريقة أهل الاعتزال (٣)

وأقول : لا نبخس الزمخشري حقه في خدمته لتفسير القرءان الكريم من جوانبه البلاغية واللغوية والذي اغترف ونهل منه العلماء ، لولا ما فيه من اعتزال لكان في عداد التفاسير الممدوحة.

ومن ملاحظة استشهاد أبي حيان بأقوال الزمخشري من خلال تفسيره – خاصة بعد المواضع التي كان النقد فيها لاذعًا – لم تقِلّ بل كانت في خطها التصاعدي ولا أدل على ذلك من أن سورة الناس مع قصر تفسيرها وهي ختام التفسير استشهد فيها أبو حيان أربع مرات بأقوال الزمخشري .

وأيمّا يكن الأمر فإني في هذه الخاتمة أضع شهادتين للعلماء على تفسيره مؤيدًا لهما

١- رواه البخاري في صحيحه ك :التفسير ب: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ٤/ ١٦٥٥ رقم ٤٢٧٤
٢- سورة ص آية ٨٢، ٨٣
٣- أبو حيان ، البحر المحيط ٤٥٩/٢

أما الشهادة الأولى : فهي شهادة العلامة تاج الدين السبكي (١) في كتابه (معيد النعم ومبيد النقم) قال : " واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه ومصنفه إمام في فنه ، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته ، يضع من قدر النبوة كثيرًا ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة (٢) والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله ، ولقد كان الشيخ الإمام – يعني الده تقي الدين السبكي – يُقرؤه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) (٣) أعرض عنه صفحًا وكتب ورقة سماها "سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف" وقال فيها : قد رأيت كلامه على قوله (عفا الله عنك) (٤) وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى سيدنا رسول الله ﷺ فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبي ﷺ مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة (٥)

١- عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام الأنصاري ، الشافعي ، السبكي(تاج الدين) فقيه أصولي أديب ولد بالقاهرة ٧٢٧هـ وقدم دمشق مع والده ، ولزم الذهبي ، وولي قضاء دمشق ، وتوفي بها ٧٧١هـ من تصانيفه : شرح منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل وسماه رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب انظر : الدرر الكامنة ٤٢٥/٢ ومعجم المؤلفين ٢٢٥/٦

٢- كان الزمخشري يتطاول على أهل السنة ويحتد في النيل منهم يقول في آية الرؤية سورة الأعراف آية١٤٣ الكشاف١٥١/٢ "ثم تعجب من المنتسبين للإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبًا ، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة (معناها بلا كيف) فإنه من منصوبات أشياخهم والقول ما قاله بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنة * وجماعة حمر لعمري مؤكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا * شنع الورى فتستروا بالبلفكة "

كذلك من المواضع التي نال فيها من أهل السنة عندما فسر قوله تعالى(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) سورة الإسرء آية ٧٠ حمل حملة شعواء لقب فيها أهل السنة بالمجبرة وقال عنهم : وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم ....حتى قال أعظم من ذلك انظر الكشاف ٢/ ٦٥٤ مما يجعلني أسأل الله أن يكون قد رزقه التوبة مما قال .
٣- سورة التكوير آية ١٩
٤- سورة التوبة ٤٣ وانظر هذا البحث ص٤٩، ٥٠
٥- الشيخ تاج الدين السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ص١١٥

وأما الشهادة الثانية فللأستاذ الدكتور/ محمد حسين الذهبي ــ رحمه الله قال عن تفسير الزمخشري: " وأما قيمة هذا التفسير فهو ــ بصرف النظر عما فيه من الاعتزال ــ تفسير لم يُسبق مؤلفه إليه ؛ لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرءان ، ولما أظهر فيه من جمال القرءان وسحر بلاغته ، وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرءان وسحر بلاغته لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم . لاسيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب والمعرفة بأشعارهم وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب ولقد أضفى هذا النبوغ العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوبًا جميلاً ، لفت إليه أنظار العلماء وعلّق به قلوب المفسرين . (١)

اللهم اجعل القرءان العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وذهاب همنا وغمنا اللهم إنك جعلته نجاة فنجنا به من كل هلكة وجعلته عصمة فاعصمنا به من كل بدعة وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

" إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " سورة يونس آية ١٠

الراجي عفو ربه
محمد حسن محمد سبتان
أستاذ التفسير وعلوم القرءان المساعد
بكلية أصول الدين ــ القاهرة

١- الأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون ٤٣٣/١

الفهارس

فهرست الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
ــ إن كان وسادك لعريضًا	١٦
ــ بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا	٥٤
ــ صلاة الليل مثنى مثنى	٣٣
ــ عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق	٤٩ هامش
ــ لن يدخل الجنة أحدا عمله	٥٤
ــ لو استقبلت من أمري ما استدبرت لجعلتها عمرة	٤٩ هامش
ــ لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي	٢٥
ــ ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ... إلا مريم وابنها	٦٣
ــ من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت	٣٨

فهرست الأبيات الشعرية

فهرس قوافي الأبيات الشعرية مع عدم اعتبار ألف الإطلاق	رقم الصفحة	فهرس قوافي الأبيات الشعرية مع عدم اعتبار ألف الإطلاق	رقم الصفحة
السحائب	٤٥	يزيل	٤٤
عجب	٣٧	لاحقـًا	٦١
نشب	٥٩	سارقـًا	٦١
فوت	١٩	غارقا	٧
وموحدا	٣٣	سارقا	٦١
مزادة	٤٤	ومشارقا	٦١
محمود	٨	الشقاشقا	٦١
بالجزر	٣٣	مرافقا	٦١
صخرا	٦	موافقا	٦١
الخدر	١٥	وامقا	٦١
العصرا	٦	المخانقا	٦١
وقر	١٦	المضايقا	٦١
تعانف	٣٨	المسالك	٢٠
طوايفا	٧	لم تقلم	١٥
وطيب عناق	٦	يستقيما	٣٣
مدامة ساق	٦	الكنائن	٤٤
طوايفا	٧	تصيبه	٢٠
لائقا	٦١	يبتغيني	٥٨
يطابقا	٦١	يليني	٥٨

فهرست الأعلام

الأعلام المترجم لهم	صفحة	الأعلام المترجم لهم	صفحة
ابراهيم النخعي	٣٧	سيبويه	٣١
أبيّ بن كعب	٤١	أبو طاهر الخشوعي	١٤
تاج الدين السبكي	٦٤	الطرماح	٤٤
أبو جعفر بن الزبير	٩	الطيبي	٨
جعفر الصادق	٤١	عبادة بن الصامت	٥٤
أبو جعفر النحوي	٩	عبد الله بن عباس	٥٦
ابن حجر العسقلاني	٨	عبد الله بن عمر	٥٣
ابن حزم الظاهر	٢٢	عبد الله بن مسعود	٣٧
أبو الحسن الأخفش	٤٤	عثمان بن عفان	٤٠
الحسن البصري	٣٧	ابن عطية	٢٣
الحسن بن صالح	٤١	أبو علي الجبائي	٥٥
أبو الحسن بن عصفور	٣٢	علي بن أبي طالب	٤٠
حمران بن أعين	٤١	أبو علي الفارسي	٤٥
حمزة الكوفي	٣٦	أبو عمرو بن علاء	٣٨
أبو حنيفة النعمان	٤٢	الغزالي	٥٤
أبو حيان	٩	الفاضل اليمني	٧
الخليل بن أحمد	٣١	الفراء	٣١
الرازي	٥٩	الفيروزآبادي	٨
الزجاج	٣٢	الكعبي	٥٥
الزركشي	٢٧	ابن كيسان	٥٦
الزمخشري	٦	المتنبي	٨
زهير بن أبي سلمى	١٥	مجاهد بن جبر	٣٧
زيد بن ثابت	٤٠	محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى	٤١
سعد الدين التفتازاني	٨	محمد بن قلاوون	١٠
سعيد بن جبير	٥٦	أبو مسلم الأصفهاني	٤٤
سفيان الثوري	٤١	أبو مضر الأصبهاني	٦
السلمي	٤٣	يحيى بن ادم	٤٢
سليمان الأعمش	٤١		

المصادر والمراجع

ـ الأعـلام : لخـير الديـن الزركلي ط : دار العلم للملايين ط : الثامنة ١٩٨٩م
ـ الانتصـاف للإمام أحمد بن المنير السكندري طبع على هامش الكشاف ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م
ـ الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي
ـ أنباه الرواة : للقفطي ط : دار الكتب المصرية
ـ البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي دراسة تحقيق الشيخ /عادل عبد الموجـود والشـيخ / علـي معوض وآخرين ط . دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٣هـ
ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير منشورات مكتبة المعارف ـ بيروت
ـ البرهان في علوم القرءان : للزركشي تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ط : دار المعرفة ـ بيروت ١٤٩٣هـ
ـ بغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطي
ـ التفسير والمفسرون للأستاذ الدكتور/محمد حسين الذهبي ط : وهبة
ـ تهذيب الكمال ليوسف المزي تحقيق بشار عواد معروف ط : مؤسسة الرسالة
ـ جامع البيان لابن جرير الطبري تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط: دار المعارف
ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : لعبد القادر بن عمر البغدادي تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط: الخانجي ـ مصر
ـ ديوان الزمخشري : مخطوط بدار الكتب المصرية (الأدب) رقم ٤٥٢٩
ـ ذيل التقييد : أحمد الفاسي المكي أبو الطيب تحقيق : كمال يوسف الحوت ط : دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ
ـ سير أعلام النبلاء للذهبي ط : مؤسسة الرسالة تحقيق :شعيب الأرنؤوط
ـ شذرات الذهب : ابن العماد
ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : لأبي العباس الشيباني ثعلب ط : دار القومية للطباعة والنشر ـ مصر

ـ الشـعر والشـعراء : لعبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق أحمد شاكر دار المعارف ـ مصر ١٩٦٦هـ
ـ الطبقات :لابن السبكي
ـ طبقات المفسرين : للداودي
ـ طبقات المفسرين : للسيوطي ط : أوروبا
ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل رتبه وضبطه الأستاذ /محمد عبد السلام شاهين ط: دار الكتب العلمية
ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني ت: الدكتور/محيي الدين رمضان ط: مؤسسة الرسالة
ـ لسان العرب :
ـ مختار الصحاح :
ـ المدارس النحوية للدكتور / شوقي ضيف ط: دار المعارف ـ مصر
ـ مشـاهد الإنصـاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المرزوقي طبع على هامش الكشاف ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م
ـ معجم البلدان : لياقوت الحموي ط : دار المأمون ـ مصر
ـ معجم المؤلفين : لعمر رضا الكحالة
ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي تحقيق : بشار عواد شعيب الأرنؤوط ط : مؤسسة الرسالة
ـ نفح الطيب : للصفدي
ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لابن خلكان تحقيق د/ إحسان عباس ط : دار صادر ـ بيروت .

فهرس

ـ المقدمة ٢
ـ المقصد الأول : تعريف بالعَلَمين ٦
المطلب الأول : تعريف موجز بأبي حيان . ٦
المطلب الثاني : تعريف موجز بالزمخشري . ٩

ـ المقصد الثاني : عرض وانتقاد أبي حيان للزمخشري ١٢
وفيه خمسة مطالب
ـ المطلب الأول : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري البلاغية ١٢
ـ المطلب الثاني : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري اللغوية ١٩
ـ المطلب الثالث : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري النحوية
وطرق ذلك :
الأول : الموافقة والتقرير . ٢١
الثاني : التنبيه على اصطلاح نحوي خاص بالزمخشري . ٢٤
الثالث : الاعتراض وتحرير الصواب . ٢٦
ـ المطلب الرابع : موقف أبي حيان من رأي الزمخشري
في بعض القراءات المتواترة . ٣٦
ـ المطلب الخامس : موقف أبي حيان من آراء الزمخشري الاعتقادية
وطرق ذلك :
الأول : الموافقة على رأيه ومدحه . ٤٧
الثاني : الترفع عن ذكر قوله لشناعته . ٤٩
الثالث : التنبيه بدسيسة الاعتزال . ٥١
الرابع : تعقيب أبي حيان بأدب المناظرة على الزمخشري عند تعسفه ٥٦
الخامس : التعقيب عليه بالقول اللاذع . ٦٠
ـ الخاتمة ٦٢
ـ الفهارس ٦٦